الفصل الخامس

منحة لا محنة

في أعقاب مغادرة الخميني لإيران، اغتال أحد تلامذته رئيس الوزراء حسن علي منصور انتقامًا منه لتوقيعه قرار نفي الخميني، وهنا أدرك النظام الشاهنشاهي أنَّ الخميني -وإن ابتعد بجسده- سيرهق النظام بآرائه التي وقرت في أذهان أنصاره؛ فقرر الشاه أن يرسل لمنفى الخميني عناصر من السافاك تُحْصِي كل حركة وسكنة يقوم بها المرجع العجوز المشاغب.

وصل الخميني إلى أنقرة، وعقب أن استراح من وَعْثَاء السفر، ووجد مَقَرًّا لإقامته، أرسل الخميني رسالة إلى نجله الأكبر مصطفى في أول تواصل بين العائلة ورَبِّها المُبْعَد، جاء فيها:

"نور عيني، السيد مصطفى -أيده الله تعالى ووفقه لمرضاته- بحمد الله -تعالى- وصلت إلى أنقرة بخير وسلامة، الحمد لله إنني سليم معافى، ولا شيء يقلقني. إنَّ الله لا يقدر سوءًا لعباده، إنني من هنا أوصيكم وأوصي كافة أفراد الأسرة والأقارب بعدم الالتجاء إلا إلى الله -تعالى-، وعدم الفزع للآخرين، وأطلب منكم الصبر والثبات. إنَّ الذي يقدره العزيز -تعالى- يَجِب أن يُنَفَّذ".

حصل الخميني على جولة استطلاعية للتعرف على معالم أنقرة لمدة أربعين دقيقة، وذلك عقب موافقة السلطات التركية التي اشترطت عليه خَلْع عمامته

وارتداء البدلة الغربية التزامًا بقوانين تركيا العلمانية، على أن تتم الزيارة تحت حراسة رجال الأمن الأتراك، وبعد ثلاثة أيام أعاد الخميني الكَرَّة وزار عددًا من المساجد والمقامات في أنقرة القديمة، وبدأ الخميني يتعلم اللغة التركية حتى يستطيع التفاهم مع من حوله في منفاه، الأمر الذي أقلق رجال المخابرات التركية في أن يؤدي اتصاله بالشعب التركيّ إلى تأليبه على نظام البلاد العلماني؛ فقرروا إبعاده إلى مدينة بورصة على مضيق البوسفور، ولم يقض في العاصمة التركية سوى ثمانية أيام.

نما إلى علم أهل بورصة أن عالم دين قد قدم إلى مدينتهم للاستجمام في حمامات المياه المعدنية التي تشتهر بها مدينتهم، وسيبقى في المدينة فترة طويلة، وعقب وصوله لبورصة أصبح تحت رقابة المخابرات التركية والإيرانية، يتتبعون كل تحركاته، ويعدون عليه أنفاسه، وكان القدر يخبئ للمرجع المسن مفاجأةً سعيدةً وحزينةً في آن واحد.

بعد قرابة شهر من وصوله، وفي الثالث من ديسمبر ١٩٦٤م، فوجئ الخميني بقدوم نجله مصطفي مَنْفِيًّا إلى تركيا، بعد أن حاصر السافاك بيته في الليلة الماضية، ثم رَحَّلُوه إلى تركيا إلى جوار أبيه، وفي تركيا تفرغ الخميني لكتابة رسالته التي جُمِعَت لاحقًا في كتاب (تحرير الوسيلة) الذي ناقش فيه المسائل السياسية إلى جانب فقه العبادات والمعاملات، إلا أن ذلك العمل لم يُعَوِّض الخميني عن الشيء الذي افتقده كثيرًا في منفاه: آراء تلاميذه في حلقات الدروس.

كان اتصال الخميني بتلاميذه صعبًا، ويتم بالتنسيق بين حكومتي إيران وتركيا، ونال تلاميذ الخميني قِسْطًا جديدًا من اضطهاد الشاه. سُجِن العديد

من تلامذته النجباء في سجون الشاه، وذاقوا صنوفًا من العذاب المهين، وكان من بينهم تلميذه هاشمي رفسنجاني بعد أن قَدَّم مع عدد من زملائه عريضة احتجاج على نفي الخميني، واعْتُقِلَ رفسنجاني في (مشهد) مع آيات الله خلخالي، ورباني شيرازي، وأنصاري شيرازي، وحُوِّلُوا جميعًا لمركز السافاك بقُمّ، ثم أُوْدِعَ رفسنجاني سجن قزل قلعة بطهران، ثم حُقِّقَ معه ومع زملائه في قضية اغتيال رئيس الوزراء حسن على منصور.

اتُّهِمَ رفسنجاني بإصدار فتوى تبيح قتل منصور، وأنه قبض من أحد المراجع وهو السيد ميلاني ستة عشر ألف تومان لإعانة عائلات المعتقلين، وأنه وضع خطة لاغتيال نعمت الله ناصري رئيس السافاك، والشاه محمد رضا، وأنه حلقة الوصل بين ائتلاف البازار (التجار) والحوزة القُمّية بتكليف من الخميني، وعندما أنكر رفسنجاني؛ قرروا انتزاع اعترافاته على طريقتهم.

مُدِّدَ رفسنجاني على سرير حديدي، ورُبِطَت قَدَمه إليه، وضُرِبَ بالسياط وبالفَلَقَة على يد من اصْطُلِحَ على تسميتهم بالمستنطقين (أي من ينتزعون الاعترافات الباطلة) وكان الضرب مصحوبًا بما لَذَّ وطاب من سِبَابٍ وإهانات، وبعد أن يصل التعذيب إلى درجة معينة يوقفه المحققون معتقدين أن رفسنجاني سَيُدْلِي لهم بما يريدون سماعه، لَكِنَّ رفسنجاني كان يُخَيِّب ظنونهم في كل مرة، ووصل بهم الأمر لجرحه في رقبته بسكين، وكسر إحدى قدميه، وتوسط آية الله محسن الحكيم لدى النظام الذي تجاهل تدخله في البداية، وزاد تصميمه على تلفيق التهم لرفسنجاني، لكن رفسنجاني بصموده انتصر في النهاية وأُطْلِقَ سَرَاحُه.

عَقِب استرداده لِحُرِّيَته، عاد رفسنجاني إلى قُمّ، وكان الائتلاف قد تلاشى تقريبًا، لَكِنَّ تلاميذ الإمام كانوا حاضرين على الساحة عبر البيانات التي يصدرونها بين الحين والآخر، ومتابعتهم لأحوال الخميني في منفاه، واستغلال المناسبات المختلفة لتأليب الناس ضد النظام البهلوي، وبهذا أبقوا على اتصالهم الروحي بأستاذهم المُبْعَد.

قَرَّرَ رفسنجاني تدويل المعارضة ضد النظام البهلوي، فَدَبَّر له رجل الدين أبو الفضل توليت بعض المال وجواز سفر له ولزوجته، واستقل الاثنان القطار إلى إسطنبول بتركيا المجاورة، حيث سافر جَوًّا إلى بروكسل العاصمة البلجيكية، حيث نزل ضيفًا على أصهاره لفترة وجيزة، تَوَجَّه بعدها لعاصمة الضباب.

في لندن، التقى رفسنجاني بباقر زادة عضو مجاهدي خلق، الذي أطلعه على معلومات هامة خاصة بقوى الثورة في الخارج؛ فاستطاع بذلك رفسنجاني تكوين تَصَوُّر أَوَّلِي حول التعاون المستقبلي بين قوى الثورة في الداخل والخارج.

شد رفسنجاني رحاله إلى ألمانيا، حيث أقام في مدينة آخن برفقة إيراني آخر يدعى السيد طارمي، ثم قصد مدينة هامبورج برفقة إيراني آخر يدعى السيد شبستري، ومن هناك وقف رفسنجاني على إمكانيات معارضي الشاه في ألمانيا، إضافةً إلى ما يحتاجونه من عون، وبعد شهرين عاد أدراجه إلى إيران.

وعلى النقيض من ذلك، سُمِحَ للخميني بلقاء ممثلي عدد من مراجع الحوزة، فالتقى ممثلين عن آية الله الخونساري وآية الله كلبايكاني، الذي عرض عليه التوسط لدى نظام الشاه للسماح له بالعودة إلى إيران؛ فرفض الخميني

وقال: "لقد عاهدت الله ونفسي على ألا أتراجع أمام السلطة، وألا أستسلم لأعمالهم الدنيئة".

كان الخميني على حق عندما رفض الاستجابة لمطلب كلبايكاني، فقد كان الشاه يُحَدِّث ترسانته القَمْعية لقتل الشعب من الأموال التي يدفعها إليه الشعب، وذلك عندما حصلت إيران في نفس العام ١٩٦٤م على مائة وستة طائرة مقاتلة نفاثة أمريكية من طراز (فاك)، هذا علاوة على مائة وست وعشرين طائرة لتدعيم القوات الجوية.

كان ذلك راجع إلى الأزمة الاقتصادية التي حدثت في إيران مطلع الستينيات، إضافةً إلى تقليص المساعدات الأمريكية؛ فَقَبِلَ الشاه نصائح مستشاريه ونصائح البعثة العسكرية الأمريكية بالتركيز على النوع بدل الكَمّ، وكانت رغبة الشاه في الهيمنة على الخليج العربي وأطماعه في بلدانه هما السبب في قبول بهلوي هذا التوجه، ومرة أخرى أمدت الولايات المتحدة الشاه بطائرات نَفَّاثَة لكنها أسرع من الصوت؛ للمهام القتالية غير العادية، وكان الخليج أولى حقول تجارب استعراض قوته العسكرية الباطشة.

احتل الشاه جزيرة صرّي بين إمارتي أبو ظبي والشارقة المحكومتين من بريطانيا، وأنشأ فيها مطارًا حربيًا هامًّا، وأتبعها باحتلال جزيرة الغنم التابعة لعمان، وكأن بهلوي لم يقنع بجزيرة هنجام القريبة من إمارة رأس الخيمة التي احتلها عام ١٩٥٠م، كما ادَّعى ملكية إيران لثلاث جزر كويتية، وطالب العراق بما زعم أنه حق إيران في شط العرب (مصب نهري دجلة والفرات) وألحق جزيرة البحرين عام ١٩٥٧م، وجاهر الشاه بحقيقة نواياه برغبته في أن يكون سيد الخليج بلا منازع عندما خطب في الناس قائلًا لهم: "يجب على إيران أن

تبني مستقبل خططها العسكرية على الخليج، نحن لا نرغب في أن تخرج القوات الأجنبية من الخليج الفارسي لتحل محلها قوات أخرى، ولاشك أن أمرًا كهذا لن يحدث، وسيكون ضمان حرية الملاحة في هذه المنطقة مَنُوطًا بنا، ونحن وحدنا قادرون على القيام بالتزاماتنا على أكمل وجه".

وفي الوقت الذي كان الشاه يخزن السلاح لقتل شعبه مستخدمًا العصا، ترك للشهبانو زوجته تطويع الشعب بالجزرة.

كانت فرح بهلوي تشرف بنفسها على قوافل الصحة الطبية التي تجوب أنحاء الريف الإيرانيّ، تقدم الرعاية الطبية لغير القادرين، إضافةً لتوزيع الأراضي على الفلاحين غير القادرين لإيوائهم، وأيضًا إنشاء مكتبات الأطفال التي طرأت للشهبانو؛ كمحاولة لتعويض أطفال إيران عن انعدام القصص الخيالية المصورة الذي عانته فرح في طفولتها، وقد افتتحت أولى هذه المكتبات في طهران، ومن ثَمَّ انتشرت هذه المكتبات في مدن إيرانية عدة.

ومن مكتبات الأطفال انبثقت فكرة هيئة التنمية الفكرية للأطفال والشباب، والتي شاركت في تمويلها مؤسسات كبرى مثل وزارات:

التعليم والثقافة والنفط، كما قَدَّم الخبراء الأمريكيون عصارة خبراتهم للشهبانو؛ حتى خرج المشروع للنور، وقرر الشاه استغلال الأنشطة الخيرية التي تقوم بها الشهبانو؛ ليُدْخِلَ البلاد إلى حظيرة الطاعة البهلوية قَسْرًا، وذلك عندما عَيَّن فرح بهلوي رئيسةً مشرفةً على جامعة طهران كخطوة أولى على طريق إعادة تنظيم الجامعات تنظيمًا شاملًا على صعيد:

العملية التعليمية، والرقابة الإدارية، وتكثيف وجود حزب (رستاخيز) النهضة الذي أسسه الشاه، خاصةً بين أولياء الأمور الذين نجح النظام في تجنيدهم ضد تحركات أبنائهم المناوئة للقَمْع البهلوي، بعدما عقد لهم جلسات حوار داخل الجامعة؛ لتبصيرهم بعواقب ما يفعله أبناؤهم وهي ضياع مستقبلهم عقب القبض عليهم من السافاك، الأمر الذي أدى الى اغلاق عدة أقسام ومعاهد تكنولوجية في الجامعة لعدم استيفائها عدد الطلاب المطلوب، هذا بالإضافة إلى تضييق السبل على الطلبة الراغبين في السفر خارج إيران؛ لذلك اهتمت فرح بهلوي بتوفير فرص التعليم بالجامعة، واستكمال عدد الطلبة بالأقسام التي تحقق هذا الغرض.

كان الغرض من هذا الإجراء تحديدًا هو تقليل عدد الطلبة الإيرانيين في الخارج، الذين شكلوا نُوَاَة صُلْبَةً في تعرية نظام الشاه وكشف قَمْعه وفاشيته في الغرب بتظاهراتهم التي تتزامن مع زيارات الشاه لواشنطن وبقية عواصم القرار الغربي؛ الأمر الذي سبب حرجًا في عديد المرات للشاه، خاصَّةً عند زيارته واشنطن.

ولم يكتف الشاه بكل ما سبق، فوضع قيودًا أمام استخراج جوازات السفر، وزاد مصاريف استخراج تأشيرة الدخول إلى الدولة المطلوبة، وطلب من الحكومات الأوروبية التي تمنح تأشيرات الدخول للطلبة الإيرانيين مثل: بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ألا تمنح هذه التأشيرات مجددًا لمن ينوون السفر، ولا تجدد تأشيرات الإقامة للطلبة الموجودين على أراضيها.

وكأي طاغية يعبد كرسيّ الحكم في هذه الحقبة، لعب الشاه على وَتَرَي التطرف الديني والتهديد الشيوعي، أو ما أطلقته عليه وسائل الإعلام الرسمية: (الرجعية الحمراء والرجعية السوداء)؛ لتخويف الغرب وفي صدارته الولايات المتحدة من

تبعات إثارة الشارع الإيراني ضد نظام كلب الحراسة الوفي للمصالح الغربية على مصالح الغرب في إيران والخليج العربي، ولفقت الأجهزة الأمنية والسافاك قضيةً بالتخابر اتُّهِمَ فيها جنرال في الجيش وموظف في وزارة التعليم، وكَرَّرَت وسائل الإعلام الرسمية اتهامها للرجلين بالعمل لصالح المخابرات السوفيتية؛ لتزيد من المخاوف الغربية بشأن أي بديل للشاه.

تزامن ذلك مع عودة الشاه لشراء الأسلحة من الولايات المتحدة بطريقة ديون المبيعات الخارجية، ووضعت إدارة ليندون جونسون اتفاقية تسمح لنظام بهلوي بشراء أسلحة بقيمة مائتي مليون دولار، ومع اندلاع الحرب الهندية الباكستانية الثانية في الفترة بين الأول والتاسع عشر من سبتمبر ١٩٦٥م، على خلفية النزاع على إقليم كشمير ذي الأغلبية المسلمة الراغب في الانفصال عن نيودلهي، ازداد قلق الشاه خاصَّةً مع قَمْعه آخر انتفاضة أحوازية قبل ثلاث سنوات.

قرر بهلوي أن يكدس المزيد من الأسلحة في ترسانته العسكرية؛ فعقد صفقة مع الولايات المتحدة لشراء أسلحة متطورة ومدمرات وصواريخ أرض جو قصيرة المدى، وطائرات مروحية في إطار ما عرف بـ(برنامج التحديث الرئيس للقوات الإيرانية)، والذي خَصَّصَ له أربعمائة مليون دولار، وبعد عام ١٩٦٥م، وضع بهلوي سياسةً جديدةً خطا بها خطوات واسعةً وجادةً، خَاصَّةً عقب إعلان الولايات المتحدة أن إيران أضحت دولةً متطورةً، وليست بحاجة لمساعدات عسكرية واقتصادية.

كانت هذه أحوال إيران من الداخل، وفي منفاه كان الخميني يتأقلم مع وضعه الجديد.

اعتاد الخميني أن يؤدي صلاته في جامع أولو بالمدينة، وذات يوم جمعة صَعِد المنبر، وألقى خطبةً سياسيَّةً بلغة تركية متقنة، قال فيها: "يجب أن تحوي خطبتكم جانبًا سياسيًا كما كانت خطب صدر الإسلام، فصلاة الجماعة هي اجتماع سياسي. صلاة الجماعة هي عادة سياسية بالكامل، لكننا -للأسف- نرى أن صلاة الجمعة في بعض الأماكن لا علاقة لها بأي شيء مما تحتاجه الشعوب أو ما يحتاجه العالم الإسلامي".

ازدادت شعبية الخميني في أوساط الأتراك؛ الأمر الذي أثار حفيظة السلطات التركية، التي أبدت ضيقها من وجود الخميني على أراضيها، خاصَّةً مع تذمر نظام الشاه من آراء الخميني السياسية اللاذعة، وقررت الدولة ترجمة ذلك الغضب إلى أفعال على أرض الواقع، وذلك بمنع زائري الخميني من الالتقاء به، وطفح الكيل بالحكومة التركية مع رفض المرجع العنيد الالتزام بأصول الضيافة والكَفّ عن الحديث في السياسة؛ فأبلغته الحكومة التركية برغبتها في أن يغادر أراضيها طواعية بدلًا من أن يُرَحَّل قَسْرًا؛ فوافق الخميني دون أن يحدد وجهته المقبلة.

الثانية من ظهر الخامس من أكتوبر ١٩٦٥م، حطت طائرة الخميني في مطار بغداد، وكانت وجهة الخميني حيّ الكاظمية الشيعيّ، الذي ما إن وطأته قدماه حتى توافد عليه طلاب العلم من النجف وكربلاء يرحبون به ترحابًا شديدًا، وبعد يومين، وفي السابع من أكتوبر ١٩٦٥م، وصل الخميني إلى النجف الأشرف المدينة الأقدس لدى شيعة العالم؛ كون حوزتها هي الحوزة التي تؤهل طالب العلم الشيعي للالتحاق بالحوزة القُمّية؛ إضافةً إلى أنَّها تضم أكبر مدارس

الشيعة في العالم بأسره، ونزل ضيفًا على آية الله محمد الشيرازي الذي طلب منه إمامة الناس في الصلاة؛ فوافق وقرر الخميني أن يقيم في المدينة المقدسة.

أقام الخميني في إحدى ضواحي النجف على مقربة مما يطلق عليه ضريح الإمام عليّ، ورافقه نجلاه مصطفى وأحمد وأمهما خديجة، وبرحيل الخميني إلى النجف؛ تحققت الأمنية التي سعى لها نظام الشاه منذ أخرج الخميني من إيران؛ لبعد النجف عن السياسة، وجهل الخميني بأمور الحوزة النجفية، ووجود العلماء والمراجع وتصادم الحكومة العراقية معهم اعتقادًا من الشاه أن هذا سيطفئ وهج الخميني لدى أتباعه في إيران؛ حتى يصبح نَسْيًا مَنْسِيًّا.

بعد أربعين يومًا من وصوله للمنفى الجديد، أقام الخميني حوزته العلمية في مسجد الأنصاري بسوق الحويش، مُفْتَتِحًا دروسه لطلاب الحوزة بمحاضرات في باب البيع من كتاب (المكاسب) للشيخ مرتضى الأنصاري، وهو ما بدا مفاجئًا لطلاب الحوزة، ليس الكتاب ولا مَنْ ألفه، لكن الغريب كان البداية التي اختارها الخميني، فقد قال أحد الطلبة عن ذلك: "لقد كنا نتوقع منه أن يبدأ بتدريس فصل الجهاد في الإسلام لا باب البيع في المكاسب، حسب النسق المعروف في حوزاتنا العلمية".

كان هذا تَوَقُّعًا منطقيًا من طلاب الحوزة النجفية؛ فقد عرفوا الخميني خلال أربع سنوات خَلَت مُتَمَرِّدًا ثائرًا مُجَدِّدًا لا مَرجِعًا تقليديًا، وكانت النجف مدينة ذات مكانة خاصة في وجدان الخميني، خاصَّةً أن ترابها ضم رفات أبيه الذي قتله رجال رضا خان، وفي حوزتها تلقى علومه على يد آية الله الشيرازي، إضافةً إلى أن النجف كانت المكان الذي قصده جده السيد أحمد الهندي بعد أن نفته

سلطات الاحتلال البريطاني من كشمير، وها قد جاء دوره ليمرَّ بها كما مرَّ أبوه وجده.

وخلال إقامته في النجف، كان الخميني يمضي يومه كالتالي:
يستيقظ في الرابعة فجرًا، فيصلي الفجر، ويقرأ بعض آيات القرآن حتى ميعاد صلاة الصبح.

يتلو الأدعية والأذكار حتى السادسة صباحًا، ثم يغفو فترة بين الربع والنصف ساعة.

قبل طلوع الشمس يغادر البيت لمسجد الشيخ الأنصاري؛ ليعطي درسه اليومي لطلاب الحوزة.

الحادية عشرة والنصف يعود لمنزله؛ حتى ينال قسطًا من الراحة، ويتناول بعض الطعام، ثم يلاقي زُوَّارَه الذين تتراوح مدة زياراتهم بين خمس وعشر دقائق.

عند أذان العصر يقصد أحد مسجدين:

الشيخ الأنصاري أو الهندي، ومعظم خطبه السياسية ألقاها من مسجد الأنصاري؛ ليصلي الظهر والعصر.

الساعة الواحدة بعد الظهر يعود للمنزل؛ ليتناول طعام الغداء المؤلف من صنف واحد، ثم يأخذ قيلولته التي تتراوح بين ثلاثين وخمس وأربعين دقيقة، ثم يستيقظ بعدها ليتناول فنجان الشاي الخاص به في الرابعة عصرًا.

الرابعة والنصف بعد العصر يبدأ الخميني برنامجه اليومي في المطالعة والقراءة، يتخلل ذلك ممارسة رياضة المشي لنصف ساعة على سطح المنزل أو في ساحته.

عند الغروب يصلي المغرب والعشاء في ساحة المنزل أو مدرسة البروجردي.

بعد أداء الصلاة يجلس وحيدًا في ساحة بيته لعدة ساعات، وكانت تلك أفضل الساعات عنده.

في الساعة العاشرة ليلًا، يغادر منزله لزيارة ضريح الإمام علي، ويمكث هناك حتى منتصف الليل.

عند عودته للمنزل، يقضي وقته في القراءة والمطالعة حتى الثانية صباحًا، ثم يخلد للنوم ليكون مجمل ساعات نومه في اليوم ثلاث ساعات.

في تلك الآونة، كان الخميني ينسق التحركات ضد الشاه سِرًّا مع العَالِم الشيعي اللبناني إيراني الأصل موسى الصدر، الذي ربطته علاقة مصاهرة مع الخميني كانت أقوى من علاقة الصدر بالشاه، والذي أوفده إلى لبنان ليضع نواة الامبراطورية الفارسية التي حَلُمَ بها بهلوي، حيث إن مصطفى ابن الخميني تزوج بنت شقيقة موسى الصدر، كما تزوج ابن الصدر من حفيدة الخميني، علاوةً على الصداقة القوية التي ربطت بين الصدر ومصطفى الخميني، وهي العلاقة التي ستؤزم علاقة الصدر مع الشاه وتدفعهما للتصادم معًا.

حيث رفض الصدر قَمْع الشاه للداخل الإيراني، وقيامه بنفي الخميني خارج البلاد؛ الأمر الذي دفع الشاه للاستغناء عن خدمات الصدر، وسحب جواز

سفره الإيراني؛ ليصبح الصدر بعدها واحدًا من الجنود المجهولين في حرب النفس الطويل مع بهلوي وزمرته.

وكان الخميني يصدر بيانات تُطْبَع في الكويت وسوريا، مُسْتَغِلًّا تدريب بعض أنصاره في معسكرات حركة فتح الفلسطينية ذات الصلات القوية بالمرجع المَنْفِيّ بل وحَمَّلَهُم هويتها، هذا في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كانت تنسخ على شرائط تسجيل (كاسيت) وتُهَرَّب لإيران عن طريق رسائل مشفرة لأحمد الخميني.

أما على صعيد كفاح الخميني في الداخل الإيراني ضد نظام الشاه، فقد نظم تلاميذ الخميني جماعات جابت القرى والأرياف؛ لتحدث الناس عن قائدهم الذي نفاه الشاه، وساعدت الحوزة في تلك الحملات بتوفير المنابر لخطب هؤلاء التلاميذ، وأخفق الشاه في إيقاف تدفق هذه الرسائل.

كان العهد الأزهى لرسائل الخميني في فترتى عبد السلام عارف ثم شقيقه عبد الرحمن، اللذين اتبعا سياسة الانفتاح مع الحوزة النجفية، فقد أنشأ عارف إذاعة للمعارضة الإيرانية تبث إرسالها من العراق، وعَهِد إلى الخميني بوضع سياساتها دون تدخل منه خلال عهده، وكذلك فعل شقيقه عبد السلام، وزاد خطر الخميني على الشاه وهو في منفاه العراقي عما كان عليه الحال في تركيا.

وخلال تواجده بالعراق، كان يتردد عليه بصفة منتظمة السيد مهدي عراقي أحد أعضاء فدائيان إسلام، الذي توطدت علاقته به في إيران، وتَعَرَّف أيضًا على عضو آخر من أعضاء المنظمة سيكون ذراعه الباطشة فيما بعد وهو آية الله

صادق خلخالي، وتَعَرَّف في تلك الفترة أيضًا على عدد من معارضي الشاه في الخارج الذين ترددوا عليه عدة مرات في النجف الأشرف، مثل:

صادق قطب زادة، وأبو الحسن بني صدر في فرنسا، وإبراهيم يزدي في الولايات المتحدة، وكان يزدي أهم هؤلاء الثلاثة.

غادر يزدي إيران عام ١٩٦٣م، وسمحت له إدارة جون كينيدي بممارسة معارضة نظام الشاه من أراضيها؛ فأسس يزدي اتحاد الطلبة الإيرانيين في نفس العام قبل أن يغادر الولايات المتحدة إلى أوروبا، حيث عاش ثلاث سنوات متنقلًا بين فرنسا وألمانيا الغربية، قبل أن يقيم فترة قصيرة في العاصمة اللبنانية بيروت، قبل أن يعود للولايات المتحدة عام ١٩٦٧م.

ظل الحال على ما هو عليه بالنسبة للخميني حتى حل عام ١٩٦٨م، حيث انقلب البعثيون بقيادة أحمد حسن البكر ونائبه صدام حسين على عبد السلام عارف في السابع عشر من يوليو؛ ليمسكوا بزمام الأمور في بلاد الرافدين. وعلى خلاف الأخوين عارف، ناصَبَ البعثيون رجال الدين عامَّةً ورجال الحوزة خاصَّةً العداء؛ نظرًا للنظام العلماني الذي قرروا إقامته، وكان طبيعيًا أن ينال الخميني نصيبه من هذا التضييق؛ فقلت رسائله المُهَرَّبَة إلى إيران لكنها لم تنقطع، كما رأى صدام حسين -وهو الحاكم الفعلي للعراق في هذه الفترة- أنْ يستخدم وجود الخميني في العراق كورقة مساومة مع نظام الشاه بخصوص دعمه للأكراد وأطماعه في شط العرب، على مبدأ: (عدو عدوي صديقي).

وإلى الغرب من العراق، وفي بلاد الأرز لبنان، نجح موسى الصدر أحد جنود الخميني المجهولين في تحقيق مكسب جديد عزز به نفوذه على الساحة الشيعية

خاصَّةً والساحة السياسية اللبنانية عامَّةً، عندما وافق المجلس النيابي اللبناني في السابع عشر من مايو ١٩٦٧م على إنشاء المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، كمجلس يقوم على تلبية احتياجات الشيعة اللبنانيين ورعاية شئونهم الدينية.

وعلى صعيد الوضع السياسي في إيران، قرر الشاه أن يصل حبل الود المقطوع مع المارد الأحمر القابع على حدوده الشمالية؛ فزار الاتحاد السوفيتي في يناير ١٩٦٦م، وعقد صفقات لشراء أسلحة شملت مائة ناقلة جند من طراز BTR١٥٢، ومدافع مقاومة للطيران، وشاحنات. وكان السبب الأبرز لعقد إيران لهذه الصفقة مع السوفييت هو التسهيلات في السداد، لَكِنَّ الشُّحَّ السوفيتي التاريخي أعاد إيران مجددًا للأحضان الأمريكية، عندما رفض الاتحاد السوفيتي تزويد إيران بصواريخ أرض جو لتأمين حقول النفط في جزيرة خرج ضد الغارات الجوية العراقية، وفي نفس الشهر دخلت دولة عظمى أخرى على خط صفقات التسليح.

جَهَّزَت بريطانيا إيران بمدمرة محدثة من الحرب العالمية الثانية من طراز Battle، بعد أن قامت بتحديثها، وجهزتها بأربعة صواريخ أرض- جو بريطانية من طراز sea cat، واشترت إيران في نفس العام أربع مدمرات بريطانية من طراز ٧ mark، إضافةً إلى أربع بوارج من طراز Soam، إضافةً إلى ست عشرة حوامةً بعضها مسلح بالصواريخ، لَكِنَّ ذلك لم يرو ظمأ بهلوي للقوة الباطشة التي قرر استخدامها ضد شعبه إذا تمرد عليه.

توترت العلاقات بين الشاه والولايات المتحدة عقب اندلاع الحرب الهندية الباكستانية الثانية في الفترة بين الأول والتاسع عشر من سبتمبر ١٩٦٥م، والتي انتهت بهزيمة باكستان حليف الشاه في جنوب آسيا وأحد خطوط دفاعه

الأمامية، بعدما رفضت الولايات المتحدة تدخله إلى جانب الجيش الباكستاني، وخَشِيَ الشاه أكثر فأكثر عقب نجاح التفجير النووي الأول للهند؛ فأنشأ منظمة الطاقة النووية الإيرانية ليقيم اثنين وعشرين مفاعلًا نوويًا إيرانيًا يمتلك عبرها القنبلة النووية، وقرر الشاه الضغط على واشنطن بتنويع مصادر تسليحه.

زار الشاه أوروبا الشرقية وموسكو مرات عدة بين عامي ١٩٦٥م و١٩٦٦م؛ لعقد صفقات تَسَلُّح جديدة، وفي فبراير ١٩٦٧م عقد بهلوي صفقة تسلح مع الاتحاد السوفيتي بقيمة مائة وعشرين مليون دولار، في مقابل تصدير إيران للغاز الطبيعي للسوفييت، لكنه لم يستطع الفكاك من الدوران في الفلك الأمريكي.

وفيما يتعلق بالقوة الجوية الإيرانية، فقد كانت الطائرات المروحية أكثر المبيعات العسكرية الأمريكية، وجهزت بعضها شركة أجوستا الإيطالية بامتياز من شركة بيل الأمريكية، وجُهِّزَ الجيش الامبراطوري بطائرات عمودية مقاتلة من نوع (سي كوبرا)، وطائرات لنقل الجنود من طراز ٢١٤A، وطَوَّرَه الشاه بوضع صواريخ Tow بنفس طريقة وضعها على العجلات المدرعة، ووصل عدد الطائرات خلال عهد الشاه إلى ثمانمائة وخمس عشر طائرةً سمتيةً في جميع وحدات القوات المسلحة، مائة وسبع وأربعون منها من إيطاليا موزعةً كالتالي:

عشر من طراز SH٣D، واثنتان وعشرون من طراز CH٤٧ chinook، وأربعون من طراز ٢١٢ Agosta Bell، إضافةً لعدد من الطائرات العمودية التي اتُّفِقَ على شرائها من إيطاليا وأُجِّل استلامها لعام ١٩٧٢م، ووُزِّعَت الطائرات على الجيش كالتالي:

مائة وخمسون منها تتبع القوات الجوية، وستمائة وعشرون تتبع طيران الجيش، والبقية تتبع القوات البحرية.

كما امتلك الشاه مائتين وخمسين طائرة فانتوم مُعَدَّلَة، وسبعة أجهزة للرادار، وأربعًا وعشرين طائرةً ناقلةً للوقود من طراز بوينج ٧٤٧ العملاقة، وست طائرات بوينج ٧٠٧، ومائةً وسبعًا وسبعين طائرةً من طراز إف ٤، ومائةً وأربعين طائرةً من طراز إف ٥، وستًا وخمسين طائرةً من طراز توم كات، وثماني عشرة طائرةً من طراز إف ٢٧، وأربع طائراتٍ من طراز إف ٢٨، وأربعًا وستين طائرةً من طراز إف ١٤ وإف ١٥، وثلاثمائة طائرةٍ من إف ١٦، واثنتي عشرة طائرةً ناقلةً للوقود، وشبكات دفاع جوي متطورةً، وشبكات رصد إليكترونيةً من طراز (بروجت بوكس).

وقد نقل الشاه عن أمريكا فكرة فرسان الجو التي تتطلب قوةً ضخمةً من الطائرات المروحية، رغم أن الخبراء العسكريين قَرَّرُوا أن القوات الإيرانية عاجزة عن استيعابها؛ ونتيجة لذلك تَدَفَّق على إيران أعداد كبيرة من خبراء الصيانة الأمريكيين الذين اعتبرهم بهلوي جزءًا من جيشه، وكانت الخزينة الإيرانية تدفع رواتبهم ونفقاتهم وتكاليف معيشتهم، إضافةً إلى نفقات تعليم أطفالهم، وكانوا يحملون شارات تدل على انتسابهم للقوات المسلحة الإيرانية.

وفي سبيله لحماية مصالحه البحرية في الخليج العربي وخليج عمان وتثبيت موقع إيران؛ عمل بهلوي على تطوير سلاح بحرية قويّ، وتجاوز ذلك إلى قوة بحرية يمكنها دعم تنفيذ عمليات بحرية خاصة بالمروحيات والطائرات المدفعية، وزودها بكاسحات الألغام والمعدات المضادة للغواصات؛ ليهيئ إيران لأيّ عمل

خارج حدودها في الخليج العربي، وزودت الولايات المتحدة الشاه بعدد من القطع البحرية بينها:

ستة زوارق دورية، وخمس سفن إنزال، وست كاسحات ألغام، وأربع سفن حراسة، وازداد بذلك التغلغل الأمريكي في مراكز المؤسسة العسكرية الحساسة، وأحكمت الولايات المتحدة قبضتها على الجيش أكثر فأكثر، وقُسِّمَت البعثات العسكرية الأمريكية في إيران إلى مجموعتين:

١- مجموعة مركز قيادة وهيئات المعونة والاستشارات العسكرية والمعروفة اختصارًا بـ (ARMISH MAAG)، وكانت وظيفتها مساعدة قوات الجيش الإيراني وتبصيرها وتوجيهها في المسائل المتعلقة بشئون الدفاع والتخطيط.

٢- مجموعة المساعدات في المجال التقني (TAFT)، وكانت وظيفتها العمل على إدخال الأسلحة الجديدة وتدريب منتسبي القوات المسلحة الإيرانية، وتقديم المعلومات التقنية ووسائل الدعم حتى تحقيق الاكتفاء الذاتي في إدارة المعدات والأسلحة وأنظمة الدعم المعنية وصياغتها، وتتألف هذه المجموعة من ثمانمائة وثمانية وستين شخصًا.

عام ١٩٦٦م، وكجزء من تطوير جيش الحليف الفارسي، أرسلت أمريكا بعثةً عسكريةً أمريكيةً لتقويم تطوير واحتياجات الجيش الإيراني، وذكرت البعثة في تقريرها أن إيران تحتاج أكثر الأسلحة المتطورة، وخاصةً الطائرات المقاتلة من طراز فانتوم، وفي سبتمبر من نفس العام وَقَّع الشاه عقدًا مع أمريكا حصل بموجبه على طائرات من طراز إف ١.

ومن قبيل استعراض قوته أمام دول الخليج بعد صفقات السلاح الأخيرة مع أمريكا، دخل الشاه في مفاوضات مع الكويت والسعودية بشأن الجرف القاري على الساحل الشرقي للخليج، إضافةً لنزاعه مع الكويت على عدة جزر ادَّعَى ملكية إيران لها، واتسم الوفد الإيراني المُفَاوِض بالتعالي والكِبْر المُمَيِّزَيْن للفرس على مدى تاريخهم، وانتهت المفاوضات دون حسم الخلاف؛ فقرر الشاه دق ناقوس الخطر لجيرانه العرب، فخطب مُحَذِّرًا: "يجب على إيران أن تبني مستقبل خططها العسكرية على الخليج".

كان ذلك التصريح بمثابة إظهار العين الحمراء لعرب الخليج على الشاطئ الغربي، فإمّا القبول بسيادة إيران البهلوية طواعيةً، وإلا فلا مانع لدى الشاه المُتَعَجْرِف من دَفْعِهِم قبول سيطرته بالقوة.

كان ذلك أحد عيوب الدعم الأمريكي اللامحدود للشاه؛ فقد بدأ بهلوي يتصرف بعدوانية قد تؤدي إلى ما لا يُحْمَد عُقْبَاه مُسْتَقْبَلًا، ومن ناحية أخرى فتحت صفقات السلاح الأمريكي الباب واسعًا أمام خلق الوسطاء وتَفَشّي الرِّشْوَة والفساد داخل القوات المسلحة الإيرانية، وليس أدل على ذلك مما حدث مع الشهبانو فرح بهلوي.

ففي إحدى زيارتها لباريس أعجبتها ماسة ثمينة باهظة الثمن، فهاتفت الشاه بشأن شرائها لعدم توافر ثمنها معها، وعندما عادت لمحل المجوهرات وجدت الماسة قد بيعت؛ فَصُدِمَت، وعندما سألت عمن اشتراها نزلت الإجابة على رأسها كالصاعقة.

علمت أن المشتري زوجة أحد الجنرالات الإيرانيين، وقررت أن تستكمل البحث في الموضوع عند عودتها لطهران، وعندما تَحَرّى السافاك عن الأمر، اتضح أن الجنرال المقصود هو قائد القوات البحرية، بعد تلقيه رِشْوَة كبيرة في صفقة أسلحة بَحْرِيّة؛ فَعَزَلَه الشاه، وطُرِدَ المُلْحَق البحري الأمريكي؛ لتواطئه.

أثارت مغالاة الشاه في التسلح مخاوف معارضي سياسات الإدارة الأمريكية الداعمة للشاه دون قيد أو شرط، خاصةً من جانب لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس، فمن وجهة نظرهم موافقة الإدارة الأمريكية على هذا السلوك الخاطئ من نظام الشاه سيؤدي إلى سباق تسلح بين دول الشرق الأوسط سيكون المستفيد الأول منه الاتحاد السوفيتي، وسيؤدى إلى العصف بنظام الشاه ومصالح الولايات المتحدة في إيران، إذا ما تسبب القَمْع الذي تحققه هذه الأسلحة في ثورة الشعب على من جلدوه بسياط القَمْع الأمريكية.

سمحت هذه الأجواء المعادية للشاه بازدهار المعارضة الإيرانية المناوئة للشاه في أمريكا؛ فصارت الرسوم الهزلية الساخرة من الشاه أمرًا معتادًا، ليس في صحف المعارضة الإيرانية الصادرة في أمريكا فحسب، بل وجدت مكانًا لها على صفحات الصحف الأمريكية، ووصل الأمر لتخصيص إذاعة بوسطن ساعات من مواعيد بثها للهجوم على النظام البهلوي؛ حتى استطاع المعارضون الإيرانيون بدعم من كوادر الحزب الديمقراطي تحريك منظمات حقوق الإنسان ورابطة الحقوقيين الدوليين، التي اتخذت من دول غرب أوروبا مسرحًا لعملها ضد ممارسات النظام المنتهكة لأبسط حقوق الإنسان مع معارضيه.

تكهربت الأجواء بين الجانبين، ورَدَّ نظام الشاه على هذه الحملة الحقوقية بِجِدَّة وفظاظة، كما تسبب جنون العظمة الذي تَمَكَّن من الشاه في تبديد أموال

الشعب التي يجنيها من النفط على مشروعات ضخمة غير ذات جدوى اقتصادية وتفتقر إيران إلى المقومات الأساسية لها، فيما أطلق عليه الشاه النهضة الصناعية الكبرى في خططه للنهضة بإيران، فعلى سبيل المثال: أقام بهلوي مجمعًا ضخمًا لصناعة الصلب بمساعدة الاتحاد السوفيتي على سبيل المقايضة على الرغم من افتقاد إيران لخام الحديد.

يُضَاف إلى ذلك افتقاد إيران للقوة البشرية القادرة على إنشاء هذه الصناعات وإدارتها، إضافةً لنقص الطاقة الكهربائية، ونقص مواد البناء، واختناق الموانئ بحركة السفن التي تضطر للبقاء في عرض البحر حتى تفسد حمولتها، وتتحمل الخزينة الإيرانية غرامات تأخير وأَثَّر ذلك على الاقتصاد سلبًا.

وزاد الطين بلة إتخام السوق الإيراني بالسيولة النقدية والاستثمارات الضخمة، حتى وصلت نسبة التضخم إلى أربعين في المائة، وارتفعت إيجارات المساكن بشكل جنوني، وكان مستحيلًا على الإيراني الحصول عليها، ففي طهران وحدها يوجد أربعون ألف وحدة سكنية ومائتان وعشرون ألف وحدة تحت الإنشاء، يمتلكها نواب البرلمان الذين استفادوا من ارتفاع الإيجارات في تكوين ثروات طائلة، وتسبب هذا السلوك المشين في تَفَشِّي الرِّشْوَة بين موظفي الدولة لتوفير ثمن مساكن تأويهم.

ووصل فساد الشاه وسفهه إلى استيراد أكثر من سبعين في المائة من احتياجات إيران الزراعية، على الرغم من كَوْن إيران بلدًا زراعيًّا، وأصبح قطاع الزراعة الذي يعمل فيه ثلاثون في المائة من السكان لا يساهم سوى بخمسة عشر في المائة من الدخل القوميّ، هذا بينما أبرم الشاه عقدًا تجاريًا مع الولايات

المتحدة بقيمة خمسة عشر مليار دولار، إضافةً إلى الرَّشَاوى التي قُدِّمَت لأعضاء الكونجرس لتسهيل الصفقة.

كما استثمر الشاه مليار دولار في مشروع لإنتاج اليورانيوم بفرنسا؛ ليحصل على عشرة في المائة من إنتاجه، وقَدَّم قروضًا لدول أوروبية ونامية وصلت قيمتها إلى اثني عشر مليار وخمسمائة مليون دولار، أضف إلى ذلك زيادة ممتلكات العائلة المالكة المتمثلة في مؤسسة بهلوي، مثل:

شركة بواخر الخليج، بنك التنمية الإيراني، مؤسسة المطبوعات الملكية، مصنع جولستان لتكرير السكر، شركة التأمينات الملكية، مصانع الأسمنت في فارس وخوزستان، إضافةً إلى الفنادق والنوادي والمطاعم والملاهي الليلية، وحملت الأيام مفاجأةً سعيدةً للشاه.

الخامس من مارس ١٩٦٧م، تُوُفِّيَ رئيس الوزراء المغدور محمد مصدق في إحدى مستشفيات طهران؛ متأثرًا بسرطان الحلق الذي نهش في جسده بعد أن ضعفت مناعته واعتلت صحته عَقِبَ وضعه قيد الإقامة الجبرية من قبل الشاه بعد الانقلاب عليه، وطلبت عائلته من رئيس الوزراء أمير عباس هوفيدا أن يسمح الشاه بإقامة جنازة تليق بالرجل، لَكِنَّ الشاه تجاهل الطلب؛ فكيف يُكَرِّم من جعل الشعب يتجرأ عليه ويطيح به قبل أن يعيده الأمريكيون؟!

بعد أن اطمأنَّ الشاه إلى قوة وضعه العسكري، قرر الشاه تعضيد حكمه سياسيًا.

فعلى صعيد العلاقات السياسية، قَوِيَت العلاقات بين نظام الشاه وإسرائيل حتى وصلت إلى فتح سفارة إيرانية في العاصمة السويسرية برن للتمثيل

الدبلوماسي مع تل أبيب، وفتح سفارة إسرائيلية في طهران، وقد سبق هذين الإجراءين زيارة ديفيد بن جوريون رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق لطهران عام ١٩٦١م، وتدريب إسرائيل لأربعمائة طيار إيراني وعدد من قادة سلاح المدفعية على أراضيها، إضافةً لاستفادة نظام الشاه من خبرات الخبراء الزراعيين الإسرائيليين في إصلاح الأراضي الزراعية وتطوير أساليب الرَّيّ.

في المقابل، ردت إيران الخدمات الإسرائيلية بتمويل بناء خط أنابيب نفط عسقلان _ بئر سبع _ إيلات؛ لإمداد إسرائيل بالنفط الإيراني، وذلك عقب زيارة ممثل شركة النفط الإيراني أوائل ١٩٥٧م لإسرائيل، وانتهي بناؤه أواخر العام نفسه، وبعد مفاوضات مباشرة بين الشاه وليفي أشكول رئيس وزراء الدولة العبرية عام ١٩٥٨م، بدأت إيران في تصدير النفط لإسرائيل بسعر دولار وسبعة وخمسين سنتًا للبرميل، وأصبحت إسرائيل أكبر مستهلكي النفط الإيراني في الشرق الأوسط، وأصبح هناك خط طيران مباشر تابع لشركة العال الإسرائيلية بين طهران وتل أبيب ينظم ست رحلات أسبوعيًا، وتطورت العلاقة بمرور السنوات بين البلدين أصحاب الأطماع التوسعية.

أواخر عام ١٩٦٦م زار وفد إسرائيلي طهران، وعقد اتفاقًا وصل بعلاقة البلدين إلى التحالف العسكري غير المعلن، كما نَصَّ الاتفاق على أن يبلغ أحد الطرفين الآخر بأيِّ تحرك عسكري كبير يكون على وشك الوقوع.

وكإثبات حسن نية، غَيَّر الشاه قانون التجنيد ليسمح للإيرانيين معتنقي الديانة اليهودية بأداء الخدمة العسكرية في الجيش الإيراني، وكان المكتب التجاري الإسرائيلي له نشاطات تفوق ما سواها من نشاط سفارات بقية الدول، إذ كان يصدر نشرة إعلامية بالفارسية، وكان يُشْرِف على العديد من المؤسسات

الثقافية والاجتماعية والعلمية المقدمة لليهود الإيرانيين والمدعومة منهم، ناهيك عن التبادل التجاري بين تل أبيب وطهران.

كما عَزَّز الشاه تعاونه النفطي مع إسرائيل، وسَمَحَ بإنشاء شركة (إيرانية-إسرائيلية) مشتركة لنقل النفط الخام مباشرة إلى إسرائيل، وأُقِيمَت كذلك عدة شركات إسرائيلية للإسكان أقامت مُدُنًا كاملة منها مدينة الضباط على طريق كرج بضواحي طهران، لَكِنَّ تَبَدُّلًا في مسار العلاقات بين البلدين كان على وشك الحدوث.

الخامس من يونيو عام ١٩٦٧م، وجهت إسرائيل حليف الشاه المستتر ضربةً قاصمةً لجيرانها العرب باحتلال ما تبقى من فلسطين والضفة الغربية والقدس الشرقية التابعتين للأردن وقطاع غزة وسيناء من مصر وهضبة الجولان الاستراتيجية في سوريا، فيما عُرِفَ بحرب ١٩٦٧م أو حرب الأيام الستة، وبالرغم من أن مكسب إسرائيل الرئيس من هذه الحرب -بخلاف الأرض- كان تحطيم جمال عبد الناصر سياسيًّا، وأمر كهذا سيرضي الشاه بالتأكيد؛ نظرًا للعداء بين الرجلين، علاوةً على بعض العوامل الأخرى بين البلدين:

كونهما غير عربيين وسط بحر من العرب، ولا يدينان بالمذهب السني وسط مائتي مليون عربي غالبيتهم الساحقة من المسلمين السنة، فإيران شيعية اثنى عشرية وإسرائيل يهودية، كما أن للبلدين أطماعًا توسعيةً في جوارهما العربي، إضافةً لوجود أقلية يهودية في إيران. تلهفت إسرائيل لوجودها على أرض الميعاد المزعومة، لكن -مع كل ذلك- كان لمحمد رضا بهلوي رأي مغاير.

لم يُرِدْ الشاه في علاقته مع إسرائيل أن تكون الأخيرة دولةً ضعيفةً للغاية ولا دولةً قويةً للغاية، بل أرادها دولةً متوازنة القوى يستطيع الاستفادة منها، وفي نفس الوقت يمكنها ردع الأطماع العربية في مصر والخليج والاتحاد السوفيتي في بلاده، لَكِنَّ إسرائيل بهذا التوسع المفاجئ تُشَكِّل تهديدًا لطموحات الشاه بإعادة أمجاد الامبراطورية الفارسية التي اشتملت على بلدان مصر ولبنان والعراق ضمن حدودها، وهي دول تدخل ضمن حدود إسرائيل الكبرى من الفُرَات إلى النيل.

أي إنه لم يكن يخشى من تهديد إسرائيلي لبلاده؛ فإسرائيل تبعد عن إيران آلاف الكيلومترات، إضافةً إلى أن إيران ليست معنية بالصراع العربي الإسرائيلي كونها حليفًا للولايات المتحدة، إلا أن الشاه خشي كذلك من أن تسوء علاقاته مع دول الخليج إذا ما أيد ما فعلته إسرائيل من ناحية، ومن ناحية أخرى خشي من تَشَظّي إيران لدويلات، خاصَّةً مع وجود أقليات ذات نزعة انفصالية للأقليات العرقية، مثل: البلوش والأكراد وعرب الأحواز، وإذا ما وافق على تَبَنّي مبدأ استخدام القوة لتحقيق مصالح الدولة كما فعلت الدولة العبرية، فعليه ألا يندم إذا ما وجد أقاليم إيرانية مثل بلوشستان وسيستان أو كردستان أو الأحواز قد أصبحوا دولًا مستقلة.

من هذا المنطلق أعلن الشاه مِرَارًا وتَكْرَارًا رفضه لاحتلال إسرائيل الأراضي العربية، خاصَّةً بعدما شَنَّت إسرائيل حربها دون إخبار حليفها الفارسي؛ فغضب الشاه، وجَمَّد مشروعاته السياسية والاقتصادية مع إسرائيل؛ الأمر الذي أغضب إدارة ليندون جونسون التي أرسلت في طلب توضيح لما صَرَّح به الشاه، وسُرْعَان ما زال الغضب بين واشنطن وطهران بعد إيضاح السفير

الإيراني في واشنطن لوزارة الخارجية الأمريكية ما قصده وريث عرش الطاووس، وقرر الشاه الانتظار لما ستسفر عنه الأحداث في الشرق الأوسط، وقرر أن يحتفل بمناسبتين سعيدتين في يوم واحد.

السادس والعشرون من أكتوبر ١٩٦٧م، إنه العيد الثامن والأربعون لميلاد ملك الملوك كما تعني كلمة الشاه بالفارسية، قرر محمد رضا بهلوي الاحتفال بعيد ميلاده الثامن والأربعين وعيد جلوسه على العرش في نفس اليوم، وشَكَّلَ لجنة للإعداد لهذا الاحتفال برئاسة الجنرال مرتضى يزدان باناه، وهو من المقربين من عائلة بهلوي وممن دعموا حكمها، إلى جانب كونه أحد رفاق الشاه، وعاون باناه مهدي سامي محافظ البنك المركزي الإيراني والوَصِيّ على جواهر التاج.

اختارت لجنة الاحتفال قصر جولستان لإقامة مراسم الاحتفال به، خاصةً أن الشاه قد أُعْلِنَ فيه وليًا للعهد وهو طفل في السابعة، وقرر الشاه أن يُكَرِّر ما فعله أبوه معه وينصب طفله رضا وَلِيًّا للعهد من بعده، وقررت لجنة الاحتفال ترميم قصر جولستان قبل إقامة الاحتفال؛ لما كشفت عنه فحوصات اللجان الهندسية من وجود تصدعات أصابت أسس القصر تهدد بانهياره خاصة مع توافد مئات المدعوين من الشخصيات السياسية والعامة.

طلب الشاه من أحد الصاغة الفرس ويدعى سراج الدين صنع التاج الذي سيرتديه في الاحتفال على غرار تيجان ملوك الدولة الساسانية ويطَعِّمه بالمجوهرات اللازمة على الرغم من وجود مجوهرات لهذا الغرض لدى وزارة الخزانة، وأرادت الشهبانو فرح بهلوي تاجًا مماثلًا لتاج زوجها، وبعد تصميمات مُخَيِّبَة للآمال جاء التصميم الأمثل من المصمم بيتر آربل الذي يعمل بدار (فان كليف إيه آبل) بباريس، ومن باريس أيضًا -وتحديدًا من بيت أزياء كريستيان

ديور- جاء الثوب الذي سترتديه فرح بهلوي، ولم يغب عن ذهن المصمم إضافة اللمسة التاريخية لهذا الثوب بوضع زخارف وتطريزات فارسية تناسب الاحتفال.

أُعْلِنَ يوم الاحتفال عطلةً رسميةً في البلاد؛ حتى يتسنى للشعب مشاركة العائلة الحاكمة احتفالها بجلوس الشاه على عرش أبيه، وركب الشاه وزوجته عربة تجرها الخيالة تبعتها عربة أخرى تجرها الخيول أيضًا ركب فيها الأمير رضا ولي العهد وإلى جواره الجنرال محسن هاشمي نجاد قائد الحرس الامبراطوري واصطفت حشود ترتدي ملابس زاهية الألوان على جَانِبَي الطريق الذي سلكه الموكب تهتف: "يحيا الملك.. تحيا الملكة" وعندما مَرَّ الموكب بوسط طهران تناثرت عليه الزهور، ولَوَّح ولي العهد للحشود رَدًّا على تحيتهم له، وما إن وصل الزوجان لقصر جولستان، حتى تَعَيَّنَ عليهما اتباع البروتوكول الذي وضعه لهما الجنرال يزدان باناه بصرامة؛ حتى يخرج الاحتفال بالشكل اللائق.

دخل ولي العهد الأمير رضا أولًا، وتَبِعَه حرسه في حَشْدٍ صامت، ثم جلس الأمير الصغير على مقعد صغير على يسار العرش الذي أُعِدَّ لأبيه، بينما جلست شقيقته فرح ناز على يسار العرش، ثم دخلت الشهبانو بمرافقة وصيفات البلاط وتبعتهن فتيات صغيرات حملن ذيل ثوبها، وأخيرًا وصل الشاه، حيث قُرِعَت الطبُّوُل، وقُدِّمَ له القرآن فَقَبَّلَه، ثم امتشق السيف فالعباءة، وقُدِّمَ له التاج فوضعه على رأسه، ودَوَّت المدافع خارج القصر، وجلس بعدها الشاه على العرش، ثم تلا اليمين القانونية، ثم ألقى كلمةً جاء فيها: "أحمد الله الذي أتاح لي أن أكون مفيدًا لبلدي وشعبي بكل ما في طاقتي. وأسأل الله أن يمنحني القوة؛ لأواصل الخدمة على النحو الذي أديته حتى اليوم، إن الهدف الوحيد لحياتي

هـو شـرف ومجـد شـعبي وبلـدي، ولـيس لي سـوى أمـل وحيـد أن أحـافظ على استقلال وسيادة إيران وتقدم الشعب الإيراني، وأنا مستعد للتضحية بحياتي إن لزم الأمر من أجل تحقيق هذه الغاية.

وأدعـو الله العَلِيَّ القـدير أن يعينني على أن أُسَلِّم للأجيال القادمة بلدًا سعيدًا ومجتمعًا زاهـرًا، وأن يحمي ابني ولي العهـد؛ ليواصـل هـو أيضًـا تحمـل المهمـة الثقيلة التي تنتظره".

ثم جاء الدور على الشاه ليتوج زوجته، حيث ركعت أمامه، ثم وضع التاج على رأسها برفق؛ حتى لا يفسد تصفيفة شعرها وسط تصفيق الحضور، وفي أعقاب هـذا الحفـل أوكـل الشـاه للشـهبانو مهمـة القيـام بزيـارات للأقـاليم الإيرانيـة المختلفة للوقوف على منجزات الثورة البيضاء المزعومة، والتحقق من مدى صحة التقارير التي يرسلها له وزراؤه في حملة تضليل جديدة للإيرانيين نظمها الشاه للتعتيم على قَمْع نظامه وفساده وعمالته للغرب.

زارت فـرح بهلـوي أقـاليم أذربيجـان وبلوشسـتان وجيلان وكردسـتان، وصـولًا إلى بندر عباس على الخليج العربي في سيارتها التي خصصها لها البلاط، وكانت تنزل في أحيان كثيرة لتستمع إلى شكاوى الفلاحين والسيدات الريفيات البسيطات، بل وتتسلم منهم الشكاوى يدًا بيد.

ولطالما ضاقت بالحراسة الأمنية المشددة حولها، طالبةً من قادتها ألا يعاملوها كالشاه من حيث الأهمية، فهي زوجته وليست حاكم البلاد مثله، وكان يرافقها في هذه الزيارات حسين خطيبي مدير منظمة الأسد والشمس الحمراء (الصليب الأحمر الإيراني).

أما عندما كانت تسافر إلى قرى نائية في تلك الأقاليم، فكانت تستقل الطائرات المروحية كما فعلت عند افتتاحها مزرعة لتربية دود القز في إحدى قرى إقليم أذربيجان، وقررت الشهبانو أن تُولِي الأيتام وأطفال الشوارع رعايةً خاصةً بعدما بدأت هذه الظاهرة تستفحل.

أسست فرح بهلوي جمعيةً للأيتام وأطفال الشوارع وترأستها هي، بينما أوكلت إدارتها لفاطمة خزيم عَلَم، ووصل عدد أعضائها إلى عشرة آلاف عضو، وكان المقر الرئيس والوحيد في العاصمة طهران. وحتى يمكن للجمعية تقديم خدماتها للمحتاجين في كل أنحاء إيران؛ قررت تدريب الشبان والفتيات العاملين؛ ليكونوا مربين على أسس علمية، وقَرَّرَت فرنسا مَدَّ يَدَ العَون للمؤسسة عبر أحدث برامج التدريب، هذا وقد منح أحد الأثرياء المؤسسة قطعة أرض في منطقة شميران بالعاصمة طهران؛ لتشيد عليها دارًا للعطلات، هذا بالإضافة إلى إنشاء المؤسسة لدار عطلات أخرى قرب بحر قزوين.

وقد سبق هذه الخطوة توفير مدارس للطلبة من هؤلاء الأطفال وألحقت بها مساكن لمبيتهم، وكذلك أُنْشِئ مركز للمعاقين بالمؤسسة، وعلى إثر ذلك تقدمت النائبة مهرانجيز مانوشهريان بطلب إصدار قانون يلزم المخطوبين بتوقيع الكشف الطبي قبل الزواج؛ لتجنب حالات الإعاقة الناتجة عن هذا الزواج خاصة بين الأقارب، وقد كان لها ما أرادت.

كما افتتحت فرح بهلوي عدة مدارس لتعليم المكفوفين القراءة والكتابة بطريقة برايل؛ لتأهيلهم لدخول سوق العمل عقب نهاية الدراسة، وقد استطاعوا الحصول على عمل كعمال تحويلات في سنترالات الهواتف التابعة للحكومة، هذا علاوة على إنشاء المؤسسة للملاجئ كملاذ للّقَطَاء واليتامى، وتَبَنّى العديد

من الأجانب الوافدين إلى إيران أطفالًا من هذه الملاجئ، وغادروا بهم إلى بلادهم، وكانت الشهبانو محبةً لما تقوم به من عمل، وصادقةً في مشاعرها مع الناس، بينما كان الشاه يستخدم هذه الأعمال لتلميع نظامه ليس إلا.

تقدم الشاه في خريف ١٩٦٧م بطلب للحصول على عشر طائرات مروحية من طراز هوفر كرافت، وتأجل استلامها حتى مارس من العام التالي، وكان ذلك لحاجة في نفس الإنجليز.

فبحلول عام ١٩٦٨م، اتخذت بريطانيا قرارها بالانسحاب من مستعمراتها في شرق السويس و الخليج العربي، واتفقت البحرين وقطر والإمارات على الاتحاد فيما بينها كبديل عن الاحتلال البريطاني.

وبموازاة ذلك، حثت القيادة البريطانية ونظيرتها الأمريكية الشاه على زيادة قوته العسكرية؛ حيث إنَّ إيران -من الآن فصاعدًا- ستصبح حجر الزاوية في الشرق الأوسط عامّةً ومنطقة الخليج خاصةً.

لم يتأخر الشاه في تنفيذ الأوامر؛ فزار بهلوي الولايات المتحدة في يوليو من نفس العام، وعقد صفقة أسلحة مع الولايات المتحدة بقيمة ستمائة مليون دولار خلال ست سنوات من ١٩٦٨ حتى عام ١٩٧٤م؛ ونتيجة لذلك زادت الميزانية العسكرية الإيرانية لتصل إلى أربعمائة وخمسة وستين مليون دولار عام ١٩٦٨م، مقارنةً بثلاثمائة وستة وستين مليونًا ومائتي ألف دولار عام ١٩٦٧م، وفي هذا العام أيضًا تلقى الشاه صاعقتين لم تكونا في حسبانه.

الأولى عندما اكتشفت الأجهزة الأمنية الإيرانية تجنيد أعضاء تنظيمات مسلحة منشقين عن حزب تودة لعدد من ضباط الجيش لاستعداء الإيرانيين ضد نظام

بهلوي، وكان أهم التنظيمات المسلحة التي تصدت لنظام الشاه هو التروتسكيون الإيرانيون ذو النشاط الواسع في أوروبا والولايات المتحدة، والذي أسسه باباك زاهيري في نفس العام بأمريكا، وكانت الصاعقة التي نزلت على رأس الشاه أن هذا التنظيم يُمَوَّل من المخابرات الأمريكية.

ولم يكن هذا التنظيم ذا حظوة لدى المخابرات فحسب، بل حتى لدى أعضاء الكونجرس الأمريكي، وبشكل خاص لجنة الشئون الخارجية، ووصل الأمر للدائرة الضيقة المقربة من ريتشارد نيكسون.

أما الصاعقة الثانية فهي عندما أصيب الشاه ببعض التعب واشتكى من آلام تسري في جسده دون أن يعرف لها سببًا، و بعد الفحص الطبي كان التشخيص الكارثي: سرطان الطحال.

لم يكن لدى الشاه تاريخ مرضي يمكن أن يؤهله للإصابة بهذا الداء الخبيث، خاصةً أنَّ السرطان مرض ينتقل وراثيًا بين الآباء والأبناء، ولم يكن لما قاله الأطباء سوى معنى واحد: أيام الشاه في الدنيا باتت معدودة.

لكن الشاه قرر أن يلقي بمحنة مرضه وراء ظهره ويسير في خططه.

مع بداية العام التالي ١٩٦٩م، ومع وصول ريتشارد نيكسون لسُدَّة الرئاسة، حصل الشاه على مائة مليون دولار كمنحة من سيد البيت الأبيض، وقد تلقى الشاه تأكيدات من الأمريكيين بحصوله على دفعة جديدة من طائرات الفانتوم، كما أمدته بريطانيا بعدد من الزوارق البحرية والدبابات؛ لتناسب دوره الجديد.

سافر الشاه لقضاء عطلته الشتوية في سانت موريز بسويسرا كما اعتاد، وعقب وصوله عَرَّج على اجتماع زيوريخ لمقابلة ممثلي منظمة الدول المصدرة للنفط أوبك؛ للتباحث حول زيادة الإنتاج بنسبة عشرة في المائة، لكن الاجتماع لم يسفر عن شيء؛ فهدد الشاه بتشريع قانون يجيز تخفيض المساحة المتفق على استخراج النفط منها، خاصةً مع معاناة إيران من عدم كفاية دخلها من النفط؛ الأمر الذي أَثَّر على خطط الشاه لتطوير ترسانته القَمْعية.

لَكِنَّ الشاه المصاب بالغطرسة الفارسية قَرَّرَ أن يُكَدِّس المزيد من الأسلحة في ترسانته التي لم يكن لها استخدام سوى قَهْرِ الشعب، ففي بدايات فبراير ١٩٦٩م اشترى الشاه ست عشرة طائرةً سمتيةً فرنسيةً من طراز (سوبر فريليون) بقيمة ثمانية وعشرين مليون دولار، إضافةً لعدد من صواريخ (أرض – أرض)، واتفق كذلك مع إيطاليا على شراء عدد من الطائرات المروحية ستسلمها لإيران عام ١٩٧١م.

وعلى صعيد أطماع الشاه في الخليج، التقى وزير بلاط الشاه (أسد الله عَلَم) في السابع عشر من فبراير ١٩٦٩م بالسفير البريطاني في طهران (دينيس رايت)، وأخبره أن المفاوضات بشأن جزيرة البحرين تسير وفق ما يريده الشاه، وعندما تحادث معه (عَلَم) بشأن جزيرتي طنب الكبرى والصغرى التابعتين لإمارات الساحل الشرقي للخليج، أخبره رايت:

"من المؤكد أن تؤول الجزيرتان لإيران، وقد هددنا شيخ رأس الخيمة بأن الجزر تقع في جانب إيران من خط الحدود، وإذا لم يلجأ لنوع من التفاهم مع الإيرانيين؛ فسيأخذونها بالقانون أو القوة".

وسأله (عَلَم) عن جزيرة أبي موسى ثالث الجزر الواقعة بين إمارات الخليج وإيران، فَرَدَّ (رايت): "إنها تقع أسفل خط الحدود".

فَرَدَّ عليه (عَلَم): "إننا أقوياء، ويمكننا تجاهل هذا الخط".

لم يُخْفِ (رايت) قلقه من أن تؤدي مشكلة هذه الجزر الثلاث إلى مشاكل مع جيران إيران من العرب، فَرَدَّ عليه (عَلَم): "فليذهب العرب إلى الجحيم، ماذا فعل لنا العرب؟ لو أنهم فقط يوقفون كل هذا الهراء، ويوافقون على أن يدفعوا لحماية الخليج ويتركونا نبدأ العمل".

في اليوم التالي، التقى السفير الأمريكي في طهران (أرمن مايرليراني) بـ(عَلَم)، وأبدى انزعاجه من محادثات الشاه في زيوريخ، معلنًا خوفه من احتذاء بقية الدول المنتجة للنفط في الشرق الأوسط للسلوك الإيراني. لَكِنَّ (عَلَم) طمأنه، وتَطَرَّقَا لمناقشة بعض الموضوعات الأخرى كان على رأسها الوضع المتأزم في الجارة الشرقية باكستان.

تصاعدت المخاوف من تهديدات الشاه، وفي الخامس والعشرين من فبراير ١٩٦٩م، هاتف رئيس الأوبك (أسد الله عَلَم)، وأبلغه بقلقه من تهديدات الشاه، فَرَدَّ عليه (عَلَم):

"أمامك أحد خيارين: إما أن تكون مع ما يريده سموه؛ فتقي نفسك الكثير من القلق، وإما أن تكون في موقف لا تُحْسَد عليه مالم تطعه".

بعد عدة أيام، وفي الثاني من مارس ١٩٦٩م، التقى رضا فلة نائب رئيس الشركة الإيرانية للنفط بـ(عَلَم)، عارضًا عليه نتائج مباحثاته مع أعضاء أوبك والتي

انتهت بالفشل، وعرض عليه ما رأى فيه حلًا لهذه الأزمة: أن يعمل الأمريكيون والبريطانيون على إقناع قطر وأبو ظبى والسعودية بتقليل إنتاجها؛ لتعطي الفرصة لإيران لزيادته بما يحقق لها مستوى معقولًا من الدخل من سلعتها الاستراتيجية الأولى.

في اليوم التالي، تلقى (عَلَم) نبأً من السفير اللبناني بطهران يفيد بِنِيَّة تيمور بختيار رئيس السافاك الأسبق تسليم نفسه لإيران عقب هروب تَعَدّى الثمان سنوات، وهو ما كان يمثل نجاحًا لجهود الشاه في القضاء على هذا المشاغب الطامع في عرش الطاووس.

عاد الشاه من عطلته في سويسرا وهو عَكِر المزاج في السادس من مارس ١٩٦٩م، بعد أن فشلت مباحثاته مُجَدَّدًا في التوصل لاتفاق يرضي الطرفين ويحقق مصالح البلاد، وفي اليوم التالي ترأس الشاه اجتماع السلامى "الاجتماع العام الملكي"، والذي حضره موظفو الحكومة وأعضاء البرلمان، وكان حال الخزينة الوطنية، والمناقشات حول النفط هما ما هيمن على الاجتماع، وكان الشاه غاضبًا عندما تَطَرَّق لرفض الأوبك لمقترحه بشأن زيادة الإنتاج، لَكِنَّ أخبارًا سعيدة كانت في طريقها للشاه.

في ذلك اليوم، وردت أنباء للشاه أن المقاتلين الأكراد فَجَّرُوا أنابيب لتصدير النفط العراقي في الموصل وكركوك، وأن شركات النفط قررت تحويل إنتاج العراق لتقوم به إيران، وهو ما يعطي بارقة أمل للشاه بإمكان تحسن الحالة الاقتصادية المتعثرة التي تعانى منها البلاد، وكلمة السر هي: (دعم الأكراد).

استخدم الشاه النزعة الانفصالية لأكراد العراق بزعامة مصطفى البرزاني؛ لزعزعة استقرار العراق، ومن ثَمَّ الحصول من حكومة بغداد على تنازلات بخصوص شط العرب تخدم أهدافه التَّوَسُّعِيَّة، وقد ساعده في ذلك حاجة البرزاني المَاسَّة لمن يدعمه في حربه ضد الحكومة العراقية ولوكان الشيطان؛ فقرر بهلوي ألا يضيع هذه الفرصة الثمينة.

كان الشاه سَخِيًّا للغاية في دعمه لتمرد البرزاني، فَوَطَّد علاقته مع البرزاني منذ عام ١٩٦١م عندما أظهر عبد الكريم قاسم العين الحمراء لمقاتلي البرزاني، وزَوَّد الشاه البرزاني بما يحتاجه من إمكانيات للوقوف بصلابة في وجه القوات العراقية ورَدِّ الصاع صاعين للحكومة المركزية في بغداد.

من هذا المنطلق منح الشاه البرزاني محطة إذاعية ناطقة بالكردية في منطقة ماوت بإيران؛ لحشد المقاتلين ليخوض بهم حربه الطويلة عبر البيانات الحماسية الموجهة لهم، إضافةً إلى مطبعة لنشر البيانات والمنشورات، كل ذلك بجانب العتاد والذخائر والمستشارين العسكريين وخبراء السافاك الإيرانيين الذين قدموا المشورة ووضعوا الخطط، وتَعَدَّى الأمر ذلك إلى تجاوز القوات الإيرانية للحدود العراقية والتدخل إلى جانب قوات البرزاني إذا ما استشعرت بقرب هزيمتها وفك الحصار العراقي عنها حال وصل حد الإحكام، ووصل التعاون بين الجانبين لمراحل متقدمة فاجأت البرزاني نفسه.

قرر الشاه إدخال إسرائيل حليفه الخفي على خط الصراع عام ١٩٦٣م، فكانت الأراضي الإيرانية مسرحًا للقاءات السرية بوساطة السافاك بين مندوبي الموساد والبرزاني الذين تولوا تدريب قوات البشمركة، وعَيَّنوا مندوبًا للموساد في

كردستان العراق هو أليعازر تسفرير، أُنِيط به تقديم السلاح والأموال للبرزاني ومقاتليه.

سَهَّل شاه إيران مرور السلاح الإسرائيلي المتطور من مضادات طائرات ومدافع مورتر ودبابات مع مدربين عسكريين إسرائيليين للبرزاني؛ لتدريب المقاتلين على هذه الأسلحة. وساعد الموساد بالتعاون مع السافاك البرزاني في تأسيس جهاز مخابرات كردي متطور باسم باراستين؛ لجمع المعلومات عن الحكومة والجيش العراقيين لصالح الشاه والموساد. وتسلل أحد مسئولي الموساد لكردستان العراق عبر إيران وهو أريا ألياف عام ١٩٦٦م؛ ليقيم مشفىً ميدانيًا للأكراد لعلاج مصابي القتال.

لم يكن هذا هو كل شيء، فقد كان الموساد يدفع للبرزاني شهريًا خمسين ألف دولار؛ للإنفاق على رواتب مقاتليه ومؤنهم بعد أن يمر مندوبه من إيران بعلم السافاك. وفي أعقاب حرب ١٩٦٧م تزايدت التعاون بين الجانبين عبر الملحق العسكري الإسرائيلي بطهران يعقوب نمرودي. وقد تُرْجِم هذا الدعم اللامحدود من الشاه للأكراد في صورة خسائر للجيش العراقي، وقلاقل تقض مضاجع نظام بغداد. وانتظر الشاه قطف ثمار هذا التعاون، لَكِنَّ الداخل الإيراني كان يعج بالمشكلات،ويفسد سعادة الشاه بنجاح مخططاته في العراق.

الثامن من مارس ١٩٦٩م، اشتكى (عَلَم) للشاه من اضطراب البلاد؛ نتيجة التضاعف المفاجئ في أسعار المياه وانهيار أسفلت الشوارع وازدياد فساد رجال الأعمال، وحَذَّرَه (عَلَم) من أزمة مالية في الجامعات. فرد الشاه بعصبية: "ماذا نستطيع أن نعمل بدون أموال تدخل البلاد؟".

obeikandl.com

وصباح اليوم التالي كان الشاه على موعد جديد مع الأزمات، حيث أبلغه (عَلَم) بأزمة الجامعات، فَرَدَّ بهلوي غاضبًا: "ماذا أفعل بدون أموال؟ كل المشاريع تعدت الأموال التي لها".

أرسل الشاه في الثاني عشر من مارس (عَلَم) إلى كابول العاصمة الأفغانية؛ للقاء وزير الدولة الأفغاني؛ لحل النزاع حول الحصة الإيرانية من نهر هيرماند الحدودي، وعاد (عَلَم) إلى إيران في السادس عشر من الشهر نفسه.

في اليوم التالي عرض (عَلَم) ما طرحه في كابول حول زيادة حصة بلاده من مياه النهر كما عرض على ملك البلاد محمد ظاهر شاه زيارة إيران، لكن الملك الأفغاني رفض الزيارة؛ متعللًا بقرب عقد الانتخابات البرلمانية في بلاده.

الثامن عشر من مارس، أثار (عَلَم) موضوع المياه مع الشاه مجددًا، فَرَدَّ الشاه بحدة: "إلى أيِّ مدى تعتقد أن الشعب يمكن أن يأخذ الأشياء دون مقابل؟ التَّقَدُّم يكلف أموالًا".

في اليوم التالي التقى (أسد الله علم) بالسفير البريطاني، وكان النقاش حول جزر الإمارات الثلاث والبحرين، ورَدَّ السفير البريطاني على استفسارات (عَلَم) بقوله:

"طنب ستكون سهلة لكم، أما أبو موسى فلا؛ كونها قريبة جدًا من شبه الجزيرة العربية".

فرد (عَلَم): "هذا لا يعطى للعرب حقًا للتمسك بمنطقة إيرانية لن يتركها سمو الشاه".

الحادي والعشرون من مارس ١٩٦٩م، خطب الشاه في الشعب الإيراني بمناسبة عيد النيروز وهو بداية السنة الفارسية، هنأه فيها بهذه المناسبة، وأخذ يسرد إنجازاته خلال عام انصرم، وكان الإنجاز الأهم بحسب كلامه هو دخول المرأة للبرلمان الإيراني، وكيف أنه وقف بحزم في وجه رجال الدين الذين رفضوا خطوته هذه حتى وصل به الحال لإعدام اثنين منهم.

الثالث والعشرون من مارس ١٩٦٩م، تحدث السفير البريطاني مُجَدَّدًا مع (أسد الله عَلَم) بشأن الجزر التابعة لإمارات الخليج، لَكِنَّه هذه المرة ربط مصير الجزر الثلاث بمصير البحرين، وعرض على (عَلَم) الحل التالي:

"يمكن لإيران احتلال الجزر الثلاث بذريعة حماية مصالح الاتحاد إذا ما دعمت قيام اتحاد الإمارات العربية".

عرض (عَلَم) على الشاه ما دار في لقائه مع السفير البريطاني على الشاه، فثارت ثائرة الأخير وقرر أن يُفَجِّر مفاجأة بعد عدة أيام.

أجرى بهلوي حوارًا مع نيويورك تايمز أعلن خلاله نيته أن يحل محل البريطانيين في البحرين، وحَذَّر الولايات المتحدة من أن إيران قد تتحالف مع السوفييت إذا لم تحصل على المساعدات المناسبة من الولايات المتحدة، وختم الشاه حواره بالقول: "يجب على أمريكا أن تدرك أننا قوة حاكمة مستقلة، وأننا لن نترك الطريق لأحد".

مساء السابع والعشرين من مارس ١٩٦٩م، أناب الشاه (أسد الله عَلَم) لحضور الاستعداد لاحتفالات عاشوراء التي ستحل بعد يومين، وحضرها الشاه في التاسع والعشرين من الشهر نفسه، وبعد انتهاء مراسمها أُبْلِغَ الشاه بدعوة

الرئيس الأمريكي نيكسون له ليحضر جنازة أيزنهاور بعد ظهر الغد، قَبِلَ الشاه الدعوة ورأى فيها فرصةً للتعرف على نيكسون وإدارته عن قرب.

بعد انتهاء مراسم دفن أيزنهاور، التقى الشاه بالرئيس نيكسون، ووزير دفاعه ميلفن ليرد، ورئيس البنك الدولي روبرت مكنمارا، ومستشار الأمن القومي هنري كيسنجر، بعدها بدأ الشاه محادثاته.

أبلغ الشاه نيكسون بخلافاته مع الأوبك، وأوضح له خطورة زياد إنتاج الكويت وأبو ظبي، وأنهما ستصبحان غنيتين حتى يُفَاجَأ الغرب أنه أمام زوج من الوحوش، فبإمكان الدولتين شَلّ مصالح بريطانيا لو سحبتا ودائعهما من المصارف البريطانية، تَفَهَّم نيكسون موقف الشاه، لكنه أعلن ألا سلطة له على الأوبك أو شركات النفط؛ فَقَرَّر الشاه استخدام ورقته الرابحة.

طلب الشاه من نيكسون أن يتفكر في المميزات التي ستجنيها أمريكا مما أسماه صداقة إيران، منبهًا إلى أن إيران ليست أضحوكةً أمريكيةً، لكنها تفضل البقاء مستقلةً عن السيطرة السوفيتية، فهي صديقة للغرب قادرة على البقاء والدفاع عن مصالحها وعن مصالح أصدقائها الغربيين، وناقش بعد ذلك بعض العلاقات الثنائية كالتجارة وتدريب الطيارين.

عقب عودته من الولايات المتحدة، قرر الشاه توجيه رسالة للعراق حول النزاع على شط العرب، حيث ألقى خطابًا أمام الجلسة الافتتاحية للمجلس النيابي الإيراني، حيث قال:

"وبخصوص شط العرب، بعد أن أبدينا أقصى درجات الصبر وضبط النفس خلال اثنين وثلاثين عامًا تجاه معاهدة ١٩٣٧م الاستعمارية، بادرنا إلى إعلانها

معاهدة غير ذات قيمة، لكننا أعلنا في نفس الوقت أننا على استعداد لنعقد مع جارتنا معاهدةً شريفةً بهذا الشأن، على أساس المساواة، وطبقًا للقوانين الدولية".

ازدادت ثقة الشاه في أهميته بالنسبة للغرب، وفي تصريح مع الصحفي الأمريكي أرنودي بوتشجولف حَوْل أمن الخليج ودور الغرب فيه قال: "إنَّ أمن أوروبا ما هو سوى كلمة خالية ودون أي معنى إذا تَعَذَّرَ الاستقرار والأمن في الخليج، وإن أوروبا الغربية والولايات المتحدة واليابان تعتبر الخليج جزءًا من أمنها ولكنها غير قادرة على ضمان هذا الأمن، لهذا نحن نقوم بهذه المهمة نيابةً عنها".

تسارعت وتيرة الأحداث بهذا الشأن، فبدأ الشاه يُعَدِّل حدوده مع العراق عند شط العرب وهو مالم يَنُصّ عليه ترسيم الحدود، وأعلن في التاسع عشر من أبريل ١٩٦٩م، أن إيران تعلن إلغاء معاهدة ١٩٣٧م، وترجم ذلك على الأرض في صورة اشتباكات حدودية في شمال العراق، وهوجمت مراكز الشرطة العراقية في هذه المناطق، واشتبك الجيش العراقي مع نظيره الإيراني لتسع ساعات، قبل أن يضطر الأخير للتراجع تحت وطأة المقاومة العنيفة من العراقيين.

ألقت أجواء التوتر تلك بظلالها على القوى الكبرى ذات المصالح في الشرق الأوسط، فسارع السفير السوفيتي في طهران للقاء الشاه للتوسط؛ لإنهاء الأزمة بين الجارين اللدودين، فأعلن الشاه ترحيبه بهذه الوساطة طالما لم تخرج عن الإطار المحدد لها، فهو يعلم المصالح السوفيتية في العراق التي جعلت من بلاد الرافدين حليفًا للمارد الأحمر، كان الشاه يوافق على دبلوماسية الجزرة مع بغداد، لكنه كان يمسك بالعصا في يده الأخرى ويُعِدُّها ليضربَ بها إذا لزم الأمر.

الأول من مايو ١٩٦٩م، استقبل الشاه كبار ضباط الجيش ورئيس الأركان وقادة القوات الجوية والبرية والبحرية، إضافةً لمعاونه العسكري الجنرال عظيمي، حيث أعطاهم الأوامر بالاستعداد للمواجهة العسكرية مع العراق، وبعد نهاية اللقاء التقى الشاه رئيس ديوان أمير الكويت، الذي عرض هو الآخر الوساطة بين العراق وإيران، وشكره الشاه على مسعاه الطيب.

الثاني من مايو ١٩٦٩م، أقال الشاه عددًا من قادة الجيش بجانب رئيس الأركان؛ لما رآه من تقصير في أداء واجباتهم؛ فَحَلَّ الجنرال فتح الله منبشيان محل الجنرال أريانا في رئاسة الأركان، وحَلَّ الجنرال فيرود دجام محل الجنرال ضرغام في قيادة القوات الجوية، وقرر الشاه تلميع صورته على صعيد الداخل الإيراني.

خلال تلك الفترة، تعهدت الولايات المتحدة وبريطانيا بمنح الشاه مبلغ مليار دولار للإنفاق على برنامج الدفاع الإيراني، ووعدت الإدارة الأمريكية الشاه بأن تزوده بطائرات فانتوم مقاتلة، وقرر الشاه بعدها التفرغ قليلًا للشأن الداخلي.

سافر الشاه إلى شيراز في الفترة بين الخامس والعاشر من مايو ١٩٦٩م، وبرفقته وزير بلاطه (أسد الله عَلَم)؛ حيث حضر المؤتمر الوطني لجامعات إيران الذي عُقِدَ هناك، وسَعِدَ لحصول جامعة بهلوي على المركز الأول لذلك العام، وعقب عودته إلى طهران كان غير راض عن أداء جامعة طهران قبل العودة لقصر نيافران.

السابع والثامن عشر من مايو ١٩٦٩م، وعلى مدى يومين، حضر الشاه و(أسد الله عَلَم) الذكرى السنوية لوفاة الإمام الرضا في (مَشْهَد) وسط حشد من

المحتفلين وصل عدده إلى ستين ألف شخص، ثم سافر بعد ذلك لإقليم سرخس على الحدود بين إيران والاتحاد السوفيتي؛ ليتفقد برنامج التطوير الزراعي بالإقليم، وحقق الشاه انتصارًا سياسيًا جديدًا عندما توسط أمير الكويت بطلب من عبد الناصر؛ لإصلاح العلاقات بين البلدين الأهم والأعرق في الشرق الأوسط: مصر وإيران.

كان هذا التصرف من جانب ناصر اعترافًا صريحًا منه بتغير موازين القوى في الشرق الأوسط عقب حرب ١٩٦٧م، حيث تحولت إسرائيل القوى المهيمنة في المشرق العربي واستغلت علاقتها مع إيران البهلوية في فرض الرؤية الأمريكية الإسرائيلية على عبد الناصر، خاصَّةً بعدما طلب الأخير من عاهل الأردن الملك حسين التوسط لإيجاد حَلٍّ سلمي يستعيد به سيناء التي أضاعها بجعجعته دون أن يكون مستعدًا لمجابهة الأطماع الإسرائيلية فيها، لَكِنَّ شاه إيران قرر رد صاع إهانة ناصر له صاعين.

الخامس والعشرون من مايو ١٩٦٩م، طلب الشاه من ويليام روجرز المبعوث الأمريكي لإيران عدم مساعدة عبد الناصر في مأزقه مع إسرائيل بناءً على طلب سابق من ممثل السفارة الإسرائيلية في طهران، وهو ما أكد عليه (أسد الله عَلَم) في حديثه مع جوزيف سيسكو مساعد روجرز، خَاصَّةً مع تجاهل عبد الناصر عدة مرات للحل السلمي مع إسرائيل.

السابع والعشرون من مايو ١٩٦٩م، وصل العاهل الأردني حسين بن طلال إلى طهران؛ للتوسط في الأزمة بين العراق وإيران، وفي نفس اليوم التقى (عَلَم) بوزير الخارجية البريطاني مايكل ستيوارت في السفارة البريطانية بطهران، وناقش معه

قضية جزر إمارات الخليج الثلاث، وهَدَّأ ستيوارت من مخاوف (عَلَم)، وقال له: "أقول لك بإيمان قوي أننا نعتبر ضمان إعادة الجزر لإيران من واجبنا".

الخامس من أغسطس ١٩٦٩م، بدأ الشاه يجني الثِّمَار المُرَّة لتوسعه في الإنفاق العسكري دون سواه؛ حيث اضطر لإلغاء التوسعات في خطة التنمية الرابعة بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٣م في اجتماعه بالمجلس الاقتصادي الذي ضم إلى جانبه رئيس الوزراء وعدد من الوزراء ورئيس مؤسسة التخطيط ومدير البنك المركزي، وعندما عاتبه (عَلَم) على عدم مبالاته بنقص الميزانية، رد الشاه في اندهاش: "الزيادة في ميزانيات أنابيب الغاز والمشروعات البتروكيميائية أكبر من أن تصدق".

الثامن من أغسطس ١٩٦٩م، حقق الشاه اختراقًا فيما يخص جزر الإمارات الثلاث، حيث استطاع مايكل ستيوارت إقناع شيخي رأس الخيمة والشارقة بتوقيع اتفاقية بخصوص هذه الجزر، كما طَمْأَن الشاه حول مفاوضات البحرين وأنها تسير بشكل جيد.

الثاني عشر من أغسطس ١٩٦٩م، أجرى السفير البريطاني اتصالًا هاتفيًا بأسد الله عَلَم الذي طمأنه بخصوص موافقة الشاه على ما يخص جزر الإمارات الثلاث، أَمَّا فيما يخص البحرين فإنه -أي الشاه- لن يقبل بالحلول غير العادلة، فاقترح السفير البريطاني عرض الأمر على ممثل الأمين العام للأمم المتحدة يوثانت يعطي بعده تقريرًا حول وجهة نظر الشعب البحريني عقب النقاش مع جماعات الضغط المحدودة، لَكِنَّ (عَلَم) رفض ذلك، وأَمَّن الشاه على هذا الرفض في اليوم التالي، ورأى أن إرادة البحرينيين هي الفيصل.

الثاني من سبتمبر ١٩٦٩م، اضطربت أعصاب الشاه لوقوع انقلاب عسكري في ليبيا قاده عقيد في السابعة والعشرين من عمره يُدْعَى مُعَمَّر القذافي، ورأى أن أمرًا كهذا سيتسبب في اهتزاز الموقف النفطي لبلاده خاصة مع وجود قواعد عسكرية غربية بليبيا، إضافةً لنقاء النفط الليبي مقارنة بالإيراني.

الثالث عشر من أكتوبر ١٩٦٩م، اعتمد الشاه أوراق تعيين سفير الولايات المتحدة الجديد دوجلاس ماك آرثر، وهو ابن شقيق الجنرال الشهير قائد القوات الأمريكية خلال الحرب الكورية خمسينات القرن العشرين.

السادس عشر من أكتوبر ١٩٦٩م، زار الشاه أمريكا وبصحبته (أسد الله عَلَم)، ووصل إلى واشنطن في الثامن عشر من الشهر نفسه بعد ليلة ترانزيت في باريس، والتقى بعد ذلك في نيويورك بعدد من رجال الأعمال الأمريكيين المهتمين بالاستثمار في إيران، وكذلك عقد لقاءً مع مجلس نيويورك للعلاقات الخارجية الذي يتكون من عدد من السياسيين والدبلوماسيين وأباطرة الصحافة ورجال الأعمال، وكانت نتائج الاجتماع مثمرة؛ إذ عززت مكانة الشاه لدى الولايات المتحدة، واجتمع في اليوم التالي مع نيكسون لمناقشة آخر المستجدات السياسية.

الأول من نوفمبر ١٩٦٩م، تَلَقَّى الشاه طوق النجاة من الولايات المتحدة عندما أرسلت شركة الكوكب عرضًا بتسويق النفط الإيراني في أمريكا، مقابل تلبية ما يطلبه الشاه من معدات حربية أو ما سواها، لكن نيكسون رفض هذا الإجراء خشية اتهامه بالفساد؛ فقرر الشاه أن يخوض مفاوضات رسمية مع الحكومة الأمريكية.

في ذلك العام أيضًا أسس المفكر المعارض لنظام الشاه د/ علي شريعتي حسينية الإرشاد كمركز لتفريخ القيادات الثورية الشبابية التي ستقود الحِرَاك يومًا ما لاقتلاع نظام الشاه، وكان الأمن بالمرصاد لشريعتي، حيث وضعه السافاك تحت الرقابة تَحَيُّنًا لإلقاء القبض عليه، واستطاع شريعتي بالفعل تخريج العديد من الطلبة الثوريين الذين سيصبحون شوكة في خاصرة الشاه عما قريب.

أواخر ١٩٦٩م، صدر كتاب (الحكومة الإسلامية) للخميني، واختتم به مجموعة محاضراته عن تصوره للحكم في الإسلام التي ألقاها في مسجد الأنصاري بالنجف الأشرف منذ عام ١٩٦٥م. ولأهمية هذا الكتاب؛ سَنُفْرِد مساحةً لإلقاء الضوء عليه في هذا الفصل.

تَحَدَّث الخميني في الفصل الأول منه عن ولاية الفقيه، والولي الفقيه - بحسب عقيدة الشيعة الاثني عشرية- هو من ينوب عن الإمام المهدي الإمام الثاني عشر والأخير بين أئمة الشيعة والمعروف بآمر الزمان أو المُسَرْدَب، والذي يعتقد الشيعة أنه دخل السرداب في سامراء وهو ابن سبع سنين ولم يخرج إلى الآن، وفي غياب المهدي تُعَطَّل أحكام الشريعة وإقامة الدولة الإسلامية العادلة حتى يخرج، لَكِنَّ الخميني رأى أن ولاية الفقيه هي ما سيعجل بخروج المهدي وإقامة الدولة العادلة.

وهذا الولي الفقيه -بحسب المعتقد الشيعي- قرآن يمشي على الأرض، ولا يجوز مخالفته، وولاية الفقيه واجبة كولاية النبي -صلى الله عليه وسلم-، أَمَّا عن حدود مسئوليات الولي الفقيه فهي أكبر وأخطر من كل الناس، وبإمكان هذا الولي أيضًا إبطال بعض قواعد الإسلام للمحافظة عليه، وهذا الولي معصوم

من الخطأ والانحراف، كما يملك من أمر الإدارة والرعاية السياسية للأمة كل ما يملكه النبي -صلى الله عليه وسلم- والإمام علي -كرم الله وجهه-.

وقد أسهب الخميني في حديثه عن مهام الولي الفقيه، فقال: "الفقيه هو المتصدي لأمر الحكومة لا غير، وهو ينهض بكل ما قام به الرسول -صلى الله عليه وسلم- لا يزيد ولا ينقص شيئًا، فيقيم الحدود كما أقامها الرسول، ويحكم بما أنزل الله، ويجمع فضول أموال الناس كما كان ذلك في عهد الرسول، وينظم بيت المال، ويكون مؤتمنًا عليه، وإذا خالف أحكام الشرع فإنه ينعزل تلقائيًا عن الولاية؛ لانعدام عنصر الأمانة فيه. فالحاكم الأعلى في الحقيقة هو القانون يستظلون بظله، والناس أحرار منذ يولدون في تصرفاتهم المشروعة، وليس لأحد على غيره أي حق".

أَمَّا عن سبب إثارته لقضية ولاية الفقيه، فقد ذكره الخميني بقوله: "قد مر على الغيبة الكبرى لإمامنا المهدي أكثر من ألف عام، وقد تمر ألوف السنين قبل أن تقتضي المصلحة قدوم الإمام المنتظر. هل تبقى أحكام الإسلام معطلةً يعمل الناس في خلالها ما يشاءون؟ ألا يلزم ذلك الهرج والمرج القوانين التي صَدَع بها نبي الإسلام؟ هل حَدَّدَ الإسلام عمر الشريعة بمائتي عام مثلًا؟ هل ينبغي أن يخسر الإسلام من بعد الغيبة الكبرى كل شيء؟

إذن فكل من يتظاهر بالرأي القائل بعدم ضرورة تشكيل الحكومة الإسلامية فهو ينكر ضرورة تنفيذ الأحكام الإسلامية، ويدعو إلى تعطيلها وتجميدها، وهو ينكر بالتالي شمول وخلود الدين الإسلامي الحنيف".

واعتبر الخميني أن الأمة الإسلامية تشغر بالغربة عن مبدأ ولاية الفقيه لعدة أسباب، كان أهمها ثلاثة أسباب من وجهة نظره:

١- الحركة الصهيونية والتبشير الاستعماري:

فقد اعتبر الخميني أن اليهود دأبوا على محاربة الإسلام منذ ظهوره، وحياكة المؤامرات التي أفضت نهاية الأمر إلى سقوط دولة الخلافة وإنشاء إسرائيل كعامل تمزيق بين شرق العالم الإسلامي وغربه، أما التبشير المسيحي فقد اعتبر أن تغريب المسلمين عن دينهم وإلحاقهم بركب النصرانية هو الخطوة الأولى للسيطرة على العالم الإسلامي والتحكم في موارده ومقدراته.

٢- شبهات المستشرقين والمستعمرين حول الإسلام:

فالإسلام دين الحق والعدل والمساواة، لَكِنَّ مستعمري الأقطار الإسلامية ومستشرقي الغرب شَوَّهوا هذه الصورة السَّمِحَة للإسلام، وألصقوا به كل نقيصة؛ حتى جعلوا كثيرًا من المسلمين يسيرون وراء شبهاتهم.

ومن هذه الشبهات الادعاء بأن الإسلام لا شأن له بإقامة المجتمع، وأنه قاصر على أحكام الشريعة ولا يؤسس لحكومة، وأَنَّ قوانين القرآن قوانين خَشِنَة - معاذ الله- ولا تصلح للنظام القضائي في عصرنا، وفتحوا بذلك الباب أمام دخول القوانين الوضعية الغربية للبلاد الإسلامية، وضرب الخميني بإيران مثالًا على ذلك.

فعندما أراد الإنجليز طرد الروس من إيران والحلول محلهم، أدخلوا من ضمن ما أدخلوه قوانينهم الوضعية، ونَحَّوا القوانين الإسلامية جانبًا، والتي وصفها أحدهم بقوله:

"خشونة هذه الأحكام مستمدة من خشونة البداوة. خشونة العرب هي التي سببت خشونة هذه الأحكام ".

وعندما احتكم الناس لهذه القوانين الوضعية سببت لهم هذه القوانين مشاكل جَمَّة، تارةً لطول إجراءات التقاضي، وتارةً أخرى لإصدارها أحكام في غير جانب الحق، وتارةً ثالثة لإصدارها عقوبات قاسية في جرائم لا تستحق هذه العقوبة، مثل إعدام تاجر المخدرات والاكتفاء بحبس شارب الخمر.

٣- لا ضمان لقيام حكومة في الإسلام:

وهي فكرة نشرها الاستعمار الغربي عقب احتلاله البلدان الإسلامية، واعتبر أنَّ الإسلام لا يضمن قيام مؤسسات حكومية، وحتى إذا افترض وجود أحكام شرعية في الإسلام، فإنها تفتقر إلى ما يضمن لها التنفيذ، وبالتالي يتوقف دور الإسلام عند التشريع ليس إلا.

ورأى الخميني أن المستعمر نشر هذه الأفكار حتى يبعد المسلمين عن كل ما له علاقة بالسياسة والحكم؛ حتى يتسنى للمستعمر تمكين أذنابه من رقاب البلاد والعباد؛ فيستقر له الأمر دون خوف من معارضة أو مقاومة، ورأى الخميني أن حل هذه المشكلات يكمن في الولاية.. ولاية الفقيه.

وفي الفصل الثاني تطرق الخميني إلى ضرورة تشكيل الحكومة الإسلامية، ورأى الخميني أن أُولَى لَبِنَات الحكومة الإسلامية هي وجود مؤسسات أو سلطة تنفيذية تضع التشريعات والقوانين موضع التنفيذ، واستدل الخميني على صحة رأيه هذا بأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يرأس السلطات التنفيذية الثلاث في صدر الإسلام: الحكومة، وجهاز التنفيذ، والإدارة.

ويبين الخميني أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لم يكتف بتفصيل الأحكام، بل وضعها أيضًا موضع التنفيذ، فقطع يد السارق، ورجم أو جلد الزاني حسب حالته من الإحصان أو العزوبية، واعتبر الخميني أن تنفيذ أحكام الشريعة بعد وفاة محمد -صلى الله عليه وسلم- ضرورة لا غنى عنها، لذا وجب قيام حكومة تتمتع بمزايا السلطة المنفذة لهذه الأحكام وهذا أمر لا يتوافر إلا في الحكومة الإسلامية، واعتبر أنَّ الخلاف الذي وقع بين المسلمين عقب وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- كان على شخص من يتولى هذه الحكومة لا على فكرة الحكومة في حد ذاتها.

ورأى الخميني كذلك أن قوانين الإسلام المتنوعة تؤسس لنظام اجتماعي متكامل يسد جميع احتياجات الإنسان، وحتى العلاقات السياسية والاقتصادية وضع لها الإسلام الأطر التي تضمن نجاحها في تحقيق مصالح الدولة الإسلامية.

وضرب الخميني ثلاثة أمثلة لأحكام الإسلام في المال والدفاع والحدود:
١- ففيما يخص المال قال الخميني إن الزكاة -وقصد بها زكاة الخمس تحديدًا- لم تُفْرَض لِسَدِّ رَمَق فقراء المسلمين، ولكن لضمان نفقات دولة كبرى ذات سيادة.

٢- أَمَّا بخصوص أحكام الدفاع، فقد رأى الخميني أن الإسلام ما شرع الجهاد في سبيل الله إلا للدفاع عن استقلال وكرامة الأمة وحفظ دماء المسلمين. وحتى في وقت السلم، فقد دعا القرآن لإعداد العدة لمقاتلة المشركين في قوله تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم".

ومن وجهة نظر الخميني أن حفنةً من اليهود احتلت فلسطين ثم أحكمت قبضتها حول القدس؛ لتقاعس المسلمين عن التصدي لهم لا لقوة اليهود الضاربة.

٣- أما أحكام الحدود والقصاص والدِّيَات، فرأى الخميني أن تنفيذها ممكن دون تدخل الحكومة الإسلامية، لَكِن يُفَضَّل إشراف الحاكم الشرعي على تطبيقها، كالاقتصاص من الجناة في حالات القتل العمد أو دفع الديات في حالة القتل الخطأ.

وكضرورة لإقامة الحكومة الإسلامية؛ رأى الخميني ضرورة أن يثور المسلمون على حكامهم الطغاة كما ثار الحسين -رضي الله عنه- على ما وصفه الخميني باستبداد الأمويين، عبر تربية جيل مؤمن يحطم عروش الطواغيت ويقضى على سلطاتهم غير الشرعية؛ لأن الفساد والاستبداد يزدهران على أيدى هؤلاء الحكام. فترك هذه الحكومات تتمادى في غَيّها يُعَطِّل النظام الإسلامي وأحكامه.

وكضرورة ثانية لإقامة الدولة الإسلامية، وجب على المسلمين توحيد أراضيهم التي قَسَّمها المستعمر الغربي إنجليزيًا كان أو فرنسيًا أو روسيًا. وحتى دولة الخلافة فَتَّتَ المستعمرون أجزاءها المترامية الأطراف، وقَسَّموها غنيمةً فيما بينهم، وعينوا عملاء لهم ينفذون سياساتهم، حتى بعد أن خرجوا بجيوشهم من هذه البلدان.

وكداعم مستقبلي لهذه الحكومة، وجب على المسلمين رفع الظلم عن المظلومين وإغاثة المحرومين، مِصْدَاقًا لوصية عليّ بن أبى طالب -كَرَّم الله وجهه- لولديه الحسن والحسين: "كونوا للظالمين خَصْمًا وللمظلوم عونًا".

واستنكر الخميني صمت مئات الملايين من المسلمين على اضطهاد المظلومين من قِبَل حكامهم المعينين من الغرب.

لَكِنَّ الخميني اعتبر أيضًا أن ولاية الفقيه أمر اعتباري، يجعل الفرد قَيِّمًا على من هم أقل منه (أي بالكَمّ).

ثم استكمل الخميني حديثه عن الحكومة الإسلامية، فوصفها إنها ليست حكومةً مُطْلَقَةً على حد قَوْله، لَكِنَّها حكومة دستورية تتقيد بالقوانين المنصوص عليها في الكتاب والسنة، وبالتالي فهذه الحكومة هي حكومة القانون الإلهي، والفارق بين هذه الحكومة والحكومات الحالية من جمهورية وملكية، هو أنَّ ممثلي الشعب في الأولى وممثلي الملك في الثانية هم من يقننون ويُشَرِّعُون، بينما في حكومتنا الإسلامية المُشَرِّع هو الله -عَزَّ وجَلَّ-.

الحكومة الإسلامية هي حكومة القانون، والحاكم هو الله وحده، وحكمه نافذ في جميع الناس، وحتى السُّلُطات التي كانت موجودة عند النَّبِيّ وولاة الأمر من بعده مستمدة من الله والنبي -صلى الله عليه وسلم- هو مَنْ شَكَّلَ الحكومة، وتَرَأَّس الدولة، وحكومة الإمام عَلِيّ كانت حكومة إصلاح، ولو استمرت إلى الآن لما عرف الناس معنى البؤس، وتساءل الخميني مستنكرًا: "ما هي شرعية هؤلاء الحكام الذين يُعَمِّرون بيوت اللهو والفساد والفحشاء والمنكر، ويُخَرِّبون بيوتًا أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه؟".

وهاجم الخميني -في حِدَّة وسخرية- مَنْ أسماهم "المتظاهرين بالقداسة البلهاء" وهم رجال الدين الذين صَوَّروا الإسلام أنه نظام روحاني لا شأن له بالسياسة

ولا الشئون الاجتماعية، واعتبر أَنَّ هؤلاء لا يهتمون بما يجري، ويَحُولون بين العلماء الحقيقيين وبين تَسَلُّم السلطة والأخذ بزمام الأمور.

واعتبر الخميني أن السعي لإقامة الحكومة الإسلامية سيتكلل بالنجاح يوم نتمكن من تحطيم رءوس الخيانة وتدمير الأوثان والأصنام البشرية التي تنشر الظلم والفساد في الأرض.

وعن تَصَوُّرِه للرئيس الذي سيقوم على رئاسة هذه الحكومة، استشهد الخميني بالرسول-صلى الله عليه وسلم-، فقال: "رئيسنا المسلم هو ذلك الشخص الذي كان يجلس في المسجد، يُصْدِر الأحكام، ويُرْسِل الجيوش، وكان إذا دخل أحد المسجد -ولم يعرف الرسول- فإنه لا يستطيع تمييزه عن غيره، وكانت الدولة تُدَار في عهده ببساطة وعدل تام، وكان أمير المؤمنين عَلِيّ يحكم دولةً واسعة الأطراف تضم إيران ومصر والحجاز، ولكنه كان يعيش على نَحْوٍ لا يستطيع أن يعيش عليه طالب فقير، ولو أنَّ الحكومة الإسلامية بقيت على ما كانت عليه لما حدث كل هذا الظلم والتَّعَدّي والفحشاء".

وتَحَدَّث الخميني عَمَّن يُدَاهِن الحاكم الظالم ويسير في ركب طغيانه -ولو تَقِيَّة- كما يأمر المذهب الشيعي، فقال: "لا ينبغي التمسك بالتَّقِيَّة في كُلِّ صغيرة وكبيرة، وإنه إذا كانت ظروف التَّقِيّة تُلْزِم أحدًا منا بالدخول في ركب السلاطين، فيجب الامتناع عن ذلك، حتى ولو أدى الامتناع إلى قتله، إلا أن يكون في دخوله الشَّكْلِيّ نَصْرٌ حقيقي للإسلام والمسلمين".

وفي نهاية كتابه رَكَّزَ الخميني على النشاط الدعائي لإقامة الحكومة الإسلامية بقوله: "علينا أن نسعى لتشكيل الحكومة الإسلامية، ونبدأ عملنا بالنشاط

الدعائي ونتقدم فيه، ففي كل أنحاء العالم وعلى مدى العصور كانت الأفكار تتفاعل عند مجموعة من الأشخاص، ثم يكون تصميم وتخطيط ثم بدء العمل ومحاولة لنشر هذه الأفكار من أجل إقناع الآخرين تدريجيًا، ومن ثَمَّ يكون لهؤلاء نفوذ داخل الحكومة يغيرها على النحو الذي تريده هذه الأفكار، أو يكون الهُجُوم من الخارج؛ لاقتلاع أسسها وإحلال حكومة قائمة على هذه الأفكار مَحَلَّها، والأفكار تبدأ صغيرةً، ثم يتجمع الناس حولها، ثم تكتسب القوة، ثم تأخذ بيدها زِمَام الأمور. ولم تكن القوة حليفة الأفكار من أول يوم، وفي هذا يجب أن تتخذ من الشعب بكل قواه قاعدةً رصينةً، مع العمل الدائب على التوعية الجماهيرية من أجل فضح خطط الإجرام وكشف الانحراف الموجود لدى السلطات الوَقْتِيَّة، ويتم تدريجيًا استقطاب الجماهير -كل الجماهير- ويتم الوصول بعدها إلى الهدف".

وعن الجانب السياسي الواجب اتباعه لإقامة هذه الحكومة قال الخميني: "أنتم اليوم لا تملكون دولةً ولا جيشًا، ولكن تملكون أن تدعوا، فلم يسلبكم عدوكم هذه القدرة على الدعوة والتوجيه والتبليغ، وعليكم إلى جانب هذه المسائل العبادية أن تُبَيِّنُوا للناس المسائل السياسية في الإسلام وأحكامه وحقوقه الجنائية والاقتصادية والاجتماعية، واتخذوا من هذا مِحْورًا لعملكم، علينا من الآن أن نسعى لوضع حجر الأساس للدولة الإسلامية الشرعية، ومحاولة محو آثار ما انتشر في الناس من أباطيل، وتهذيب الأفكار المُتَحَجِّرَة المُنَفِّرَة في صفوف البعض منا، وطَرْد فقهاء القصور الذين باعوا دينهم بدنياهم مِنْ صفوفنا، وإبعادهم عن زِيِّنا، وتَعْرِيَتِهم وفضح أعمالهم".

لَكِنَّ العديد من المراجع وَجَّهوا انتقادات لفكرة الحكومة الإسلامية، تَمَثَّلَت في النقاط التالية:

١- الفكرة هُلامِيّة ينقصها التحديد والواقعية كي تلائم المرحلة الزمنية التي تعاصرها، فقد حُصِرَت إدارتُها في فقهاء ومراجع المذهب الشيعي.

٢- في الوقت الذي يحدد فيه صفات الإمام العادل لا يحدد كيفية اختياره ولا مُحَاسَبَتِه ولا عَزْله إذا بَدَر منه الخطأ.

٣- خَلْط مؤسسات الدولة التنفيذية والتشريعية والقضائية ووضعها بِيَد شخص واحد.

٤- انعدام دور الشعب في الرقابة على مُمَثِّلِيه ووضعه في موضع القاصر، ووَضْع الحاكم موضع الوَصِيّ.

٥- قَصْر الدولة الإسلامية على دولة بِعَيْنِها تذوب كل مقوماتها العرقية في بوتقتها.

٦- تركيز الخميني على الحكومة وليس الدولة الإسلامية.

لكن ما لا يمكن إنكاره أنَّ مكانة الخميني قد ازدادت في منفاه، وأصبح شخصيةً دوليةً كسياسي أكثر منه رجل دين، وكان قرار الشاه بنفيه منحةً له لا محنةً كما أراد له الشاه أن يكون، وبنى الخميني زعامته على ثلاثة أسس:

١- علاقة الإسلام بالثورة:

رأى الخميني أن الثورة هي جوهر الإسلام وأنه لا إسلام بدون ثورة، وأن الإسلام يرفض النظام الملكي من أساسه، وأن الحكم هو حكم الحكومة الإسلامية كما أسلفنا.

٢- وظيفة العلماء:

ووظيفتهم الأولى من وجهة نظر الخميني هي التصدي للاستعمار والسيطرة الخارجية، والوقوف في وجه الظلم والتسلط الداخليين، ويجب بالتالي تربية وإعداد العلماء للقيام بهذه المهمة الجسيمة، ويكون هذا الإعداد بنزع حب الدنيا من قلوبهم، وتربيتهم تربية أخلاقية، وتنظيم مناهج دراستهم.

٣- حلول المشكلات الاقتصادية:

حيث اعتقد الخميني أن النظام الاقتصادي المثالي لا يرتكز إلى قوانين السوق والمزاحمة، ولا إلى الرقابة الاقتصادية من قبل الدولة، ولكن إلى الأخلاق في البيع والشراء وحتى الربح.

كان الخميني مع ازدياد مؤيديه متابعًا لا غبار عليه للشأن الإيراني، وكانت سياسات الشاه ونمط حكمه تُقَوّي أسباب الثورة عليه يومًا بعد يوم.

الثالث والعشرون من نوفمبر ١٩٦٩م، وعقب انتهاء أعمال القمة الإسلامية في العاصمة المغربية الرباط، التقى الشاه وفد منظمة التحرير الفلسطينية بطهران، وكان ذلك أول الغيث في مسار تغيير الشاه لسياساته تجاه إسرائيل، لَكِنْ دون الوصول لقطع الحلف الاستراتيجي بين البلدين.

بحلول نهاية ١٩٦٩م، حقق الشاه طفرةً في مجال التسليح:

فأسس شركة صناعة الطائرات الإيرانية التي امتلكت فيها الحكومة الإيرانية تسعةً وأربعين في المائة من الأسهم، ومثلها لمؤسسة نورثروب الأمريكية، واثنين في المائة للمصرف الإيراني، كما أنشأ مصنعًا لصناعة صواريخ تاو الأمريكية المضادة للدبابات، وقاذفات صواريخ أمريكية من طراز دراجون إضافة، للمدافع من طراز ١٠٥ و١٥٠مم.

وحتى تكتمل احتياجات الجيش الإيراني من الأسلحة؛ أقام الشاه مصنع (رضا) لقطع الغيار العسكرية بالقرب من مدينة (مشهد) على مساحة ثلاثمائة ألف هكتار، لكن في المقابل ألقى هذا الأمر بظلاله على الاقتصاد الإيراني مجددًا.

فقد بلغت ميزانية إيران العسكرية خمسمائة وستة وثلاثين مليونًا وتسعمائة ألف دولار كانت كفيلة بحل مشاكل الحياة اليومية التي كَدَّرَت معايش ملايين الإيرانيين بدلًا من أن يُكَدِّس الشاه السلاح في مخازنه لقمع الشعب الأعزل إذا خرج يومًا عن النص وطالب بالانعتاق من نير العبودية الهلوية، وأُتْخِمَت المؤسسات العسكرية الإيرانية من جديد بمزيد من المستشارين والخبراء والمدربين الأمريكيين.

حَلَّ عام ١٩٧٠م وحالة العاصمة طهران لا تزال مزرية كما كان قبل عقدين:

فالصرف الصحي يغرق الشوارع، وأحزمة الفقر تتسع حول المدينة مع قدوم العمالة من الريف للمدينة للعمل بمصانع البتروكيماويات ومعامل تكرير النفط، واختنقت الشوارع بعوادم السيارات، وتطاول بنيان الأثرياء والشركات العالمية، وهي الصورة التي ركز نظام الشاه على تصديرها للخارج؛ للإيحاء

بالرخاء العميم في البلاد، واجتذاب استثمارات أجنبية كمصدر للدخل للإنفاق على تسليح جيشه وتثبيت دعائم حكمه.

وازدادت ثروة العائلة المالكة والمقربين منها؛ نتيجة الفساد المستشري منذ عودة الشاه عقب الإطاحة بمصدق:

فنعمة الله ناصري رئيس السافاك مثلًا استولى على قطعة أرض مملوكة لوزارة الزراعة بمنطقة تياوزان؛ ليبني قصرًا لزوجته تكلف خمسين مليون ريال، واستغل منصبه كرئيس للسافاك لبناء عدد من المباني والفيلات بالرغم من مخالفة ذلك لقوانين العاملين بالسافاك.

وأنشأ لزوجته كذلك شركة لتجارة وتقسيم الأراضي شمال البلاد، وأطلق عليها وردة الشمال، كما شارك في شركة (مرتضى ومصطفى أخوان) لصناعة السجاد، واستغل نفوذه في تعيين أحد المقربين منه وهو أمير حسين شيخ نيهائي كرئيس للغرفة التجارية، وقبض ناصري على من لم يسهلوا له عمليات فساده وسَامَهُم سُوْءَ العذاب.

وهكذا أصبح معتادًا أن تنشر الصحف الغربية تقريرًا عن شراء الشاه أو أحد أقاربه أو أحد المقربين من النظام لعقارات أو فيلات في لندن أو باريس أو نيويورك أو لوس أنجلوس؛ حتى وصل عدد الشقق المُشْتَرَاة في جنيف وحدها لثلاث آلاف شقة، وكان الشاه يُشَجِّع على هذا الفساد عن طريق مكتبه الذي كان ينسق هذه المهام، ولم ينس الشاه نَيْلَ نصيبه من تَرِكَة الفساد.

أقام بهلوي نُصُبَ الشاهيار لتخليد ذكرى توليه السلطة بتكلفة مائتي مليون دولار، وبه مصاعد تنقل الزوار للمطاعم والمتاحف، حيث وضعت شاشة

بانورامية متحركة تعرض تاريخ إيران من عهد قورش العظيم حتى أسرة بهلوي، ووصل الحال بالشاه لإقامة ناد عالمي للقمار في جزيرة كيش بالخليج ينافس أكبر أندية القمار في العالم لزوار إيران من الغرب، في الوقت الذي رزح فيه أكثر من أربعين في المائة من الإيرانيين تحت خط الفقر دون الحصول على أقل مقومات الحياة الإنسانية، وباءت ثورة الشاه البيضاء المزعومة بالفشل.

فسبعون في المائة ممن وزعت عليهم الأراضي قبل ثماني سنوات لم يصلوا حد الكفاف، ومليون ومائتا ألف مزارع إيراني بقوا دون أرض، واتجه نظام الشاه للاستفادة من كثافة رءوس الأموال بدلًا من أن يستفيد من كثافة الأيدي العاملة في تأسيس المشروعات الاقتصادية، وتَوَسَّع في الاستيراد لوفرة المال؛ مما أدى لغياب العدالة الاجتماعية.

ونتيجةً لذلك زاد الاعتماد على العمالة الوافدة من الهند وكوريا الجنوبية وباكستان بعد تجاهل الاعتماد على العمالة المحلية؛ مما رفع من معدلات البطالة نتيجة تدفق الملايين على طهران والمدن الكبرى؛ طمعًا في الظفر بحياة كريمة، ولم يحقق مراده سوى القليل من هؤلاء، وظل الباقون أرقامًا في طوابير العاطلين، لَكِنَّ الشاه ألقى بمتاعب هؤلاء وراء ظهره، وتَفَرَّغ لأطماعه التوسعية في دول الجوار، وحتى المؤسسة الدينية انقسمت في موقفها من الشاه ثلاثة أقسام:

١- القسم الأول:

هم من أغمضوا عيونهم عن ممارسات الشاه، وخالفوا ضمائرهم ومهنتهم السامية، وأيدوا الحكم البهلوي المتسلط لقاء المساعدات السخية المتدفقة من خزائن العصابة الحاكمة، وهو ثمن بَخْس لو كانوا يعلمون، وشَكَّلَ هؤلاء أقلية ضئيلة للغاية، وهم من استمد منهم الشاه مشروعية دينية زائفة.

٢- القسم الثاني:

وهم من عارضوا الشاه بشدة؛ لما رأوه من سياسات فاسدة وفاشلة على كل الصُّعُد، وكانوا أَقَلِّيَة أيضًا لكنهم كانوا أكثر من القسم الأول.

٣- القسم الثالث:

وهم الأغلبية الساحقة والصامتة أيضًا، فبغضها للشاه لم يصل للدرجة التي تدفعهم للكلام عنه، لَكِنَّ الانحلال الأخلاقي سيدفعها للتحرك ضده مستقبلًا.

استغل الشاه كل العوامل السالفة في إطالة عمر نظامه وحكم إيران طالما بقي في صدره نفس يتردد، لكن تعويله الأكبر في البقاء على رأس السلطة كان على الدعم الغربي؛ لما حققه الشاه من حماية وحراسة لمصالح الغرب طوال حكمه.

الثاني والعشرون من يناير ١٩٧٠م، هاتف السفير الإيراني في فيينا (أَسَدَ الله عَلَم) وزير البلاط الذي كان برفقة الشاه أثناء زيارة الأخير للنمسا، وأبلغه أنَّ العراق أحبط محاولة انقلابية، وأنَّ سفير إيران في العراق كان على اتصال بالانقلابيين، وقد طلب منه مغادرة العراق.

ظهر الشاه متوترًا وهو يتناول إفطاره بعد أن وصلت إليه أخبار الإعدامات التي بلغت حتى هذه اللحظة تسعًا وعشرين حالةً، وفي تلك الآونة أرسل الجنرال دجام برقيةً للشاه يوصي فيها بضربة وقائية ضد مهبط الطائرات بمطار بغداد؛ بذريعة نية العراق شن هجوم على إيران، لَكِنَّ الشاه رفض وقال له: "إنه لو صح تخطيط العراق لشن هجوم؛ فذلك عائد إلى رده على مساندتنا للانقلاب الذي أُفْشِل".

الخامس من فبراير ١٩٧٠م، التقى (أسد الله عَلَم)، ووزير الخارجية فضل الله زاهدي، ورئيس الوزراء أمير عباس هوفيدا؛ للتباحث بشأن تقسيمات أفغانستان لمشروع نهر هرماند الحدودي بين البلدين وأبدى الثلاثة رفضهم لهذا المشروع، معلنين طلبهم امتيازات في النقل عبر النهر.

الثامن من فبراير ١٩٧٠م، التقى (عَلَم) بالشاه في سانت مورتز حيث اعتاد قضاء عطلته الشتوية كل عام، وعَرَض عليه آخر التطورات التي بدأها بالحرب الدائرة في العراق بين الحكومة والأكراد، و التي أَعْرَبَ (عَلَم) عن مخاوفه بشأن انتهائها مع محادثات السلام الدائرة بين البرزاني وصدام حسين؛ فنهاية هذه الحرب تعني تركيز العراق في نزاعه مع إيران على شط العرب، ومِن ثَمَّ إعادة تصويب فوهات مدافعه على حدوده الشرقية، ثم انتقل (عَلَم) إلى الموضوع الأهم لدى الشاه: البحرين.

سأل الشاه (عَلَم): هل نخون بلدنا بالتسوية فيما يخص البحرين؟
فَرَدَّ (عَلَم): الاستيلاء على البحرين بالقوة سيكون مصدر استفزاز دائم للعرب، إضافةً إلى نضوب مصادر النفط في البحرين تدريجيا ما سيشكل عبئًا علينا.

خلال الفترة بين العشرين والخامس والعشرين من فبراير ١٩٧٠م، اشتعلت الأوضاع في طهران بعد أن ارتفعت أجرة الحافلات لثلاثة أمثالها، وجاء الرد الأعنف من طلبة الجامعات الذين رفضوا حضور المحاضرات، وحطموا الحافلات، وتعاطفت معهم جماهير الشعب وازداد زَخَم المظاهرات، وكان مطلبهم إلغاء الشاه لتلك الزيادة المفاجئة.

وصلت أنباء الاحتجاجات للشاه في سانت مورتز، وأمر الحكومة بأن تتولى الأجهزة الأمنية حل الأزمة بطريقتها القمعية الأثيرة؛ حتى لا يبدو الشاه وقد وقع فريسةً لضغوط الجماهير وتراجع عن قراره، لكن (عَلَم) قرر الدخول على خط الأزمة.

هَاتَفَ (عَلَم) الشاه وقال له:
"الأمر الآن يختلف عن عام ١٩٦٣م، استمع إلى نصيحتي ولا تستخدم القوة وأَلْغِ القرار".

الأول من مارس ١٩٧٠م، استفسر السفير البريطاني من (أسد الله عَلَم) عن سبب تأخر تقديم الشاه تقرير البحرين للبرلمان الإيراني، فعزى (عَلَم) ذلك إلى عدم انتهاء تقرير الأمين العام للأمم المتحدة يو ثانت عن الجزيرة الخليجية.

الثالث من مارس ١٩٧٠م، أكد السفير الأمريكي لـ(عَلَم) التأثير الجيد الذي تركه الشاه لدى إدارة نيكسون، وأكد له استجابة الإدارة الأمريكية لطلب الشاه بتدريب مائة وعشرين طيارًا إيرانيًا، وأنها بصدد تنفيذه، وأبلغ السفير (عَلَمَ) طلب بلاده من الشاه عقد المؤتمر الدبلوماسي الأمريكي السنوي في طهران بدلًا من بيروت.

الرابع من مارس ١٩٧٠م، عاد الشاه من عطلته الطويلة في سويسرا، وكان مذهولًا من كَمِّ الخسائر التي سببها قرار رفع أجرة الحافلات، خاصَّةً شغب طَلَبَة الجامعات، واعتقد (عَلَم) أن الأمور كانت ستؤول إلى ما هو أسوأ من ذلك.

كان تراجع الشاه عن قراره الأخير لا يخرج عن السياق العام لتصرفاته وقراراته التي غلب عليها التردد، ولعل ذلك راجع إلى ما يعانيه من ضغوط سياسية

خاصةً فيما يتعلق بأزمات البحرين وجزر الإمارات الثلاث والصراع بين الأكراد والحكومة العراقية، لكن ذلك لم يمنعه من تحقيق بعض النجاحات.

في الفترة بين السادس والتاسع عشر من مارس ١٩٧٠م، حقق الشاه ما اعتبره نجاحات سياسية:
ففي السادس من الشهر التقى الشاه برئيس الوزراء ورئيس الجمهورية الباكستانيين، واتفق الشاه على أن يكون المُوَرِّدَ الوحيد للنفط إلى باكستان التي رأى فيها عمقه الاستراتيجي، كما ناقش عددًا من العقود الخاصة بصناعة النفط الإيرانية.

وفي منتصف الشهر أخبر (أسد الله عَلَم) السفير الأمريكي امتعاض الشاه من إعلان الولايات المتحدة أنها لن تقدم لإيران سوى نصف مليار دولار كاعتمادات مالية لشراء الأسلحة ناقلًا عن الشاه أيضًا قوله:
"تخطئ الولايات المتحدة عندما تعتقد أن بقطعها اعتمادنا سوف تخفض من استيرادنا الآلات العسكرية، فسواء قدمت لنا الاعتمادات أو لم تفعل فسوف نجد الوسائل البديلة لتوفير احتياجاتنا.
خلال الخمس سنوات المقبلة نعتزم شراء أسلحة بثمانمائة مليون دولار من الولايات المتحدة، ومائتي مليون دولار من بريطانيا، ومائتي مليون دولار من السوفييت، فإذا كانت الولايات المتحدة تعارض إيفاء احتياجاتنا فيمكننا أن نتجه لطرف آخر للمساعدة".

انزعج السفير الأمريكي مما ألقاه (عَلَم) على مسامعه، ولم يصدق صدور هذا الكلام من الشاه، والتقاه بالفعل في اليوم التالي العشرين من مارس ١٩٧٠م، وبعد مقابلة استمرت ساعتين لم يصل السفير إلى حل مع الشاه.

الحادي والعشرون من مارس ١٩٧٠م، احتفل الشاه بمناسبتين واحدة وطنية والثانية دينية، فأما الوطنية فهي عطلة عيد النيروز (الربيع) وهو رأس السنة الفارسية أيضًا، وأما المناسبة الدينية فهي ذكرى وفاة الإمام الرضا، والتي احتفل بها الشاه في (مشهد)، وبصحبته عباس هوفيدا وأسد الله علم، وفي استقبال جماهيري حافل، وكان اليوم التالي يحمل بشائر انفراج في أزمة مخصصات السلاح.

الثاني والعشرون من مارس ١٩٧٠م، التقى الشاه السفير الأمريكي، حيث قال له فيما يخص موضوع التسليح:

"بيع المعدات بالنسبة لأمريكا موضوع تجاري بحت، لكن بالنسبة لنا يعتبر مسألة حياة أو موت، وسوف نجد وسائل التحويل المالي من ميزانية الدفاع الخاصة بنا، حتى لو اضطررنا للجوع".

الرابع والعشرون من مارس ١٩٧٠م، أبلغ السفير الأمريكي الشاه أنها رفضت تسليم إسرائيل خمسًا وعشرين طائرة فانتوم مع الإبقاء على المساعدات الاقتصادية، في تلميح إلى رفض الولايات المتحدة لزيادة ميزانية إيران التسليحية، وتَذَمَّر الشاه من ذلك الأمر ونقل عنه مندوبه الذي التقى السفير قوله:

"عندما تريد واشنطن أن تساعد دولةً فإنها تدبر ذلك بوسيلة أو بأخرى، وعندما يتعلق الأمر بإيران فإن الإدارة الأمريكية تختلق الصعوبات".

الخامس والعشرون من مارس، نقل (عَلَم) للشاه مُلَخَّص ما دار في جلسة الكونجرس الأمريكي حول المساعدات العسكرية الأمريكية لإيران، والتي أثنى خلالها أعضاء الكونجرس على مكانة نظام الشاه وأهميته للولايات المتحدة،

لكن -ورغم سرور الشاه بذلك- قَرَّر الإبقاء على تشنج العلاقات مع واشنطن، وطلب من (عَلَم) رفع انتقاده لواشنطن لسفيرها في طهران، وبدأ بهلوي يكيد لما هو أبعد من ذلك: إقامة علاقات متينة مع الاتحاد السوفيتي.

بدأت الخلافات بين الشاه وبلاد العم سام منذ قَرَّر وريث عرش الطاووس السعي لزيادة أسعار النفط الذي تُصَدِّرْه بلاده، الأمر الذي لم يُخْفِهِ الشاه، بل وتحدث فيه مع الإدارة الأمريكية ومع منظمة الأوبك، ودَخَلَ في شَدٍّ وجَذْب مع الأمريكيين ودول الأوبك على حَدٍّ سواء، لَكِنَّ السؤال الذي ربما يتبادر إلى أذهان البعض:
ما السبب وراء إلحاح الشاه على رفع أسعار النفط؟ ماذا سيفعل بهذا المال؟

والإجابة: سيزيد بها من ترسانته المسلحة؛ ليصبح أكبر قوة مسلحة في الخليج وفي الشرق الأوسط بأسره، ويحقق أطماعه في بلدان الساحل الشرقي للخليج والعراق التي طالما اعتبرها جزءًا من الامبراطورية الفارسية التي يعمل على استعادتها، ومن ناحية أخرى رأى الشاه في نفسه المسئول عن حماية منطقة الخليج حيث معابر النفط الاستراتيجية التي تُشَلّ بدونها الصناعة في الغرب، واعتبر نفسه حاجز الغرب ضد التمدد السوفيتي في مناطق نفوذه ومصالحه، ومن ناحية ثالثة استخدام هذا السلاح لحماية عرشه إذا ما ثار عليه الإيرانيون يومًا ما.

ومن هنا كان الشاه متهافتًا على الحصول على السلاح المتطور بكميات ضخمة من المدفع إلى القنبلة النووية، وصولًا إلى وحدات الاستطلاع المَحْمُولة جَوًّا، والتي يمتلكها الناتو الحلف العسكري الأقوى في العالم، وأقمار التجسس.

لم يعجب هذا السلوك إدارة نيكسون التي رأت فيه تَطَرُّفًا في استعمال القوة قد يضر بمصالح أمريكا بدلًا من أن يفيدها:

فمن ناحية سيؤدى هذا التكدس في مخزونات السلاح إلى خلق بُؤَر تَوَتُّر سواء بين إيران وجيرانها الخليجيين قد تتطور إلى حرب تضر المصالح الأمريكية في هذا الجزء الحيوي من العالم.

ومن ناحية ثانية، سيدس الشاه أنفه في صراعات داخلية في دول الخليج أو دول الجوار على حَدٍّ سواء، معتقدًا أنها ستعزز مكانته كقوة ذات وزن لا يستقيم بدونها الشرق الأوسط، وأوضح مثالين لسلوك الشاه هذا مساعدته للإمام البدر ضد شعبه الثائر ضده في اليمن، ومساعدته لمصطفى البرزاني ضد الحكومة العراقية.

ومن ناحية ثالثة، أرادت أمريكا تَجَنُّب انتقاد وغضب مائتين وأربعين ألف لاجئ إيراني على أراضيها يمثلون النخبة المثقفة الإيرانية التي فرت من بطش الشاه لأمريكا التي رأت فيها بلد الحريات. فكيف لبلد الحريات أن تتعامى عن هذا السلوك المشين لحاكم مستبد؟

و مع تزايد انتقادات الرأي العام الأمريكي وأعضاء الكونجرس بلجنة الشئون الخارجية لصمت إدارة نيكسون عن أفعال الشاه، قرر الأمريكيون إظهار العين الحمراء لحليفهم القابع في طهران.

استخدمت الولايات المتحدة عدة أساليب لإثناء الشاه عن أفعاله، وكان الأسلوب الأول تخفيض المعونة العسكرية الأمريكية لمائة مليون دولار في العام لتصبح خمسمائة مليون دولار في خمسة أعوام كما أوردنا في هذا الفصل، لكن

الشاه رفض ذلك المبلغ واعتبره أقل مما يريد، ولم يُعْدَم الذرائع لإقناع الولايات المتحدة بوجهة نظره في سعيه المحموم للتسلح.

بعد سقوط فَزَّاعَة القومية العربية وتهديدها لمصالح الغرب عقب هزيمة عبد الناصر في حرب ١٩٦٧م، لَوَّح الشاه بخطر تقليدي تقشعر منه أبدان ساسة الغرب عمومًا والولايات المتحدة: الخطر الأحمر.

لعب الشاه هذه المرة على وتر التمدد الشيوعي في الشرق الأوسط، مُذَكِّرًا الإدارة الأمريكية بامتلاك بلاده حدودًا مع الاتحاد السوفيتي تصل إلى ألفين وأربعمائة كيلومتر، معيدًا على أسماعهم ما وقع لإيران من احتلال سوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية وكيف كان شوكة في ظهور الغرب، وعلى إيران إذا أرادت حماية نفسها من سيناريو مماثل امتلاك سلاح يجعل السوفييت يفكرون ألف مرة قبل مهاجمة إيران، لَكِنَّ الأمريكيين لم يقتنعوا.

قَرَّرَ الشاه البحث عن ذريعة جديدة يسوق بها وجهة نظره، فكان نزاعه الدائر مع العراق حيث ادَّعى الشاه أن العراق حليف السوفييت أضحى قاعدةً سوفيتيةً تهدد منشآت إيران النفطية والعسكرية بالتدمير إذا ما احتدم الصراع بين الجانبين.

وحتى يُرَسِّخ النظام البهلوي هذا الادعاء كحقيقة في أذهان الأمريكيين، كان الشاه في مؤتمراته الصحفية يعقد المقارنات بين الإمكانات العسكرية الهائلة للعراق الذي لا يزيد عدد سكانه عن سبعة ملايين، وبين الإمكانات العسكرية الإيرانية المحدودة التي وصل عدد سكانها إلى خمسة وثلاثين مليون نسمة؛

ليوجد مشروعيةً لتسلحه المستمر؛ فهناك تهديد موجود على حدوده الغربية، لكن ذلك لم يُغَيِّر الموقف الأمريكي قيد أنملة.

أثناء زيارة الرئيس السوفيتي نيكولاي بودجورني لطهران، التقى وزير البلاط (أَسَد الله عَلَم) وعرض عليه (تعاونًا أعمق) بين بلاده وإيران، مستغلًا التَّأَزُّم في العلاقات مع أمريكا، وعقب انتهاء الزيارة، أخبر (عَلَمُ) الشاه بما دار بينه وبين ضيفه السوفيتي، فَرَدَّ الشاه بسعادة: "انظر كيف يعاملنا السوفييت بود، كذلك يغمرنا الأمريكيون بالصداقة".

واصل الأمريكيون تَصَلُّبَهُم فيما يخص تَسَلُّح الشاه، فَحَادَث السفير الأمريكي (أَسَد الله عَلَم) وأبلغه أن الولايات المتحدة لن تزيد المبلغ المخصص للتسلح عن مائة مليون، رفع (عَلَم) تقريرًا بما حدث للشاه؛ فرفض بهلوي ما جاء في المحادثة، وقال له:
"أنا أرفض الموافقة على تفسير السفير، أخبره أنه لابد أن يقدموا ثمانمائة مليون بدلًا من خمسمائة مليون".

كان الشاه مُرْتَبِكًا عقب عرضه ما آل إليه موضوع البحرين على البرلمان، وفي الحادي عشر من أبريل ١٩٧٠م طلب الشاه من (أَسَد الله عَلَم) أن يبلغ السفير الأمريكي بموافقته على عقد تصليح الطائرات الحربية مع شركة AVCO الأمريكية، تباحث الشاه بعد ذلك مع وزير الخارجية السعودي (عُمَر السَّقَّاف) بشأن الوضع في الخليج والتعاون الثنائي بين البلدين الذي وصفه الشاه بالمثمر.

مساء ذلك اليوم، التقى (عَلَم) بالسفير الأمريكي، وناقش معه مُجَدَّدًا زيادة القروض العسكرية، ودافع بشراسة عن موقف الشاه، ولم ينبس السفير ببنت شفة في نقاشه مع (عَلَم) بعد أن تَأَكَّد له تَصَلُّب موقف الشاه في هذا الصَّدَد، وبعد يومين وقع حادث أثار قلق الشاه كثيرًا.

الثالث عشر من أبريل ١٩٧٠م، وقعت أحداث شغب عقب لقاء كرة القدم الذي جمع بين منتخبي إيران وإسرائيل باستاد أمجاد بطهران، حيث ردد المشجعون هتافات معادية للكيان الصهيوني مثل: الموت لليهود، الحياة لشعب فلسطين.

أَرْبَكَ هذا الحَدَث حسابات الشاه وأقلقه، فلم يُرِد بهلوي أن تتوتر أو تسوء علاقته بالدولة العبرية التي تمده بطائرات الفانتوم الأمريكية؛ فأطلق يد الأمن لقَمْع هذه المظاهرات بكل ما أوتي من قوة، واتهم الشيوعيين بالوقوف وراءها.

السادس والعشرون من أبريل ١٩٧٠م، استطاع الشاه فرض إرادته على أمريكا التي تراجعت عن رفضها زيادة القروض الممنوحة لإيران لشراء الأسلحة، ووافقوا أيضًا على سد احتياجات القوة الجوية للشاه، وفي اليوم التالي اتصل السفير الأمريكي بـ(أَسَد الله عَلَم)؛ ليخبره بموافقة شركة AVCO على التعاقد مع إيران بشأن تصليح خدمة الطائرات العسكرية الإيرانية، وبعد أسبوعين كانت قضية البحرين في طريقها للحسم داخل أروقة الأمم المتحدة.

الثاني عشر من مايو ١٩٧٠م، أَقَرَّ مجلس الأمن مطلب البحرين في الاستقلال، ووعد المندوب الإيراني بتقديم دعم بلاده لتنفيذ القرار الأممي.

الأول من يونيو ١٩٧٠م، تفاوض (عَلَم) مع السفير الأمريكي لشراء طائرات مروحية من طراز شينهوك، واتصل السفير البريطاني بـ(عَلَم)، وحَادَثَه بشأن مضمون خطاب حكومته لشَيْخَي أم القيوين وعجمان، والذي تَضَمَّن التالي:

١- دعوة طرف ثالث لتسوية المشكلة بين عجمان وأم القيوين.

٢- لا حفر ولا تنقيب في المنطقة الخاصة بالشارقة.

٣- تحذير جميع الأطراف بوجوب أخذ مصالح إيران في الاعتبار.

كما ذَكَّرَه (عَلَم) بوعد بريطانيا بالانسحاب من إمارات الخليج خلال عام، وأوضح (عَلَم) للسفير أن مصالح إيران مُحَدَّدَة في موارد النفط الموجودة في أبي موسي فقط واستخدام الجزيرة كقاعدة عسكرية.

يوليو ١٩٧٠م، أَطَلَّ حزب تودة الشيوعي برأسه مُجَدَّدًا بعدة حوادث، كالاعتداء المُسَلَّح على أحد أقسام الشرطة في بعض المدن، وكذلك محاولة اختطاف السفير الأمريكي دوجلاس ماك آرثر، وأثارت هذه التطورات مخاوف الشاه، لَكِنَّه لم ير فيها غير زوبعة في فنجان قَرَّرَ بعدها السير في خططه.

الثاني عشر من أغسطس ١٩٧٠م، صَفَّى أحد عملاء السافاك رئيس السافاك الأسبق تيمور بختيار، والذي شَكَّل تهديدًا للشاه؛ لطمعه في السلطة وذلك أثناء تواجده في العراق كلاجئ سياسي وهو يقوم برحلة صيد، بأن أطلق عليه النار من مسدس فأرداه قتيلًا؛ وبذلك استراح بهلوي من صُدَاعٍ مُزْمِنٍ في رأس نظامه، وتَفَرَّغ لاستكمال مُخَطَّطَاتِه التَّوَسُّعِيَّة.

الحادي والعشرون من أغسطس ١٩٧٠م، التقى (أَسَد الله عَلَم) بالسفير البريطاني في طهران، وأخبره الأخير أن حكومة بلاده قد عَيَّنَت السير ويليام لوس مندوب الخليج العربي بالخارجية البريطاني كمبعوث لتسوية مشكلة جزر إمارات الخليج الثلاث، وأَبْدَى (عَلَم) موافقة الحكومة الإيرانية، كما أَبْدَى السفير البريطاني موافقة بلاده على مبادلة النفط الإيراني بالتجهيزات العسكرية البريطانية؛ الأمر الذي أسعد الشاه الذي اطمأن لزيادة ترسانته العسكرية كشُرْطِيّ للخليج.

ولأن لكل فعل رد فعل، فقد وَقَعَت حكومة هوفيدا في أزمة مالية جديدة؛ نتيجة صفقات التسليح التي يبرمها الشاه بين الحين والآخر دون أن يُعِيرَ الاقتصاد أدنى اهتمام، وبرغم ضخامة الميزانية بحسب وزير المالية؛ فقد حَذَّرَ الرجل من أن أي إسراف أو تبذير لن يكون محمود العواقب، وألقى (أَسَد الله عَلَم) باللوم على رئيس الوزراء قائلًا:
"ضع في الاعتبار أنك إذا لم تستطع تطوير الاقتصاد والسيطرة عليه فيجب أن تتحمل اللوم".

الثلاثون من أغسطس ١٩٧٠م، حقق الشاه نصرًا سياسيًا جديدًا عندما اقترح عليه مبعوث من عبد الناصر مبادرة لحل أزمة الخليج مع بريطانيا، وكانت هذه المبادرة المصرية وليدة الخلاف بين القاهرة وبغداد، فاستخدمتها القاهرة كورقة ضغط على نظام البعث عدو الشاه اللدود على مبدأ عدو عدوي صديقي، وبعد يومين كان الشاه على مرمى حجر من تحقيق صفقة جديدة مع أمريكا زادت من غرور القوة لديه، وأكدت له أهمية نظامه القصوى لدى الغرب.

الأول من سبتمبر ١٩٧٠م، التقى (أَسَد الله عَلَم) بالسفير الأمريكي بطهران وأخبره (عَلَم) بسعادة الشاه لسفره إلى واشنطن لترتيب بعض اتفاقيات التسليح مع شركة EXIM التي دفعت مائتي مليون دولار لشئون الدفاع، مُبْدِيًا موافقته على هذا المبلغ الذي رأى أنه مناسب لتطوير خطط النقل، لكنه أخبر السفير أيضًا أن نفس المبلغ لن يكون كافيًا لشراء سربين من طائرات إف٤، وسبعة أسراب من طائرات الفانتوم المُوَرَّدَة من أمريكا للشاه عبر إسرائيل، وعليه بالتالي نقل وجهة النظر هذه لإدارة نيكسون، وبعد نحو أسبوعين كان الرد الأمريكي.

الرابع عشر من سبتمبر ١٩٧٠م، اجتمع الشاه بوزير بلاطه وأخبره أن يبلغ السفير الأمريكي أن الاعتمادات المالية المقدمة من EXIM غير كافية لمواجهة احتياجاتنا العسكرية، وأبدى الشاه ضِيْقَه بالمراوغة الأمريكية في تنفيذ مطالبه رغم قيامه بواجبه على الوجه الأكمل في حفظ المصالح الأمريكية في الخليج، وقرر الرَّدَّ بِحَزْمٍ على ذلك.

أشهر الشاه مُجَدَّدًا كارت التهديد السوفيتي في وجه العم سام، مُعْلِنًا ألا خيار أمامه سوى السوفييت لتغطية احتياجاته العسكرية، فليس مهمًا من وجهة نظره كون السلاح أمريكيًا أو سوفيتيًا، فهو سيوجه لدول الخليج والعراق وليس لخوض حرب ضد الجيش الأحمر، ولم يَدُر بِخَلَد الشاه أنَّه باتِّبَاع سياسة العناد والصدام مع سيده الأمريكي سيدفع ثمنًا باهظًا في يوم من الأيام.

الثامن والعشرون من سبتمبر ١٩٧٠م، تُـوُفِّيَ الرئيس المصري جمال عبد الناصر؛ ليتخلص الشاه بذلك من غريم إقليمي رعى وحرك المعارضين للنظام البهلوي فترةً ليست بالقصيرة، ودونًا عن الصحف العالمية تَصَدَّرَ خبر عن الشاه

الصحف الإيرانية، وجاء خبر وفاة عبد الناصر تاليًا له، وبعث الشاه مندوبًا لحضور الجنازة.

بعد ثمانية أسابيع وفي الرابع والعشرين من نوفمبر ١٩٧٠م، أصدر الشاه أمرًا لوزير بلاطه (أَسَد الله عَلَم) باستدعاء السفير الأمريكي وإبلاغه باضطرار إيران للجوء إلى مكان آخر لتلبية احتياجات البلاد العسكرية وتدريب طياريها، وبموازاة ذلك طلب من (عَلَم) اتخاذ خطوات باتجاه التعامل مع كندا والاتحاد السوفيتي وبريطانيا في مجال التَّسَلُّح كجرس إنذار للإدارة الأمريكية.

التقى (عَلَم) في اليوم التالي بالسفير الأمريكي، وأبلغه بمطالب الشاه وهي:
١- زيادة سربين من طائرات الفانتوم طراز F٤.

٢- شراء ثلاث مدمرات أمريكية.

٣- الحصول على إحدى وعشرين طائرة فانتوم F٥ من الطراز الأحدث عقب بيع القديم منها للسعودية.

الثلاثون من نوفمبر ١٩٧٠م، استضاف (أَسَد الله عَلَم) السفير الأمريكي على العشاء، وأبلغه الأخير بموافقة بلاده على تدريب ثلاثمائة طيار إيراني، ثلاثة وثمانون منهم في القواعد الجوية الأمريكية بإيران، وبعد مغادرة السفير بنصف ساعة، اتصل بـ(عَلَم)، وأبلغه أنَّ محاولةً لاغتياله قد حدثت، وأَبْلَغَ (عَلَم) الشاه بما حدث؛ فاتَّهَم حزب تودة بالوقوف وراء ما جرى.

الرابع عشر من ديسمبر ١٩٧٠م، وصل وزير الخارجية الإسرائيلي أبا إيبان إلى طهران، وكان في استقباله نظيره الإيراني فضل الله زاهدي، وأقنع الشاه (عَلَم)

بأن إسرائيل ستتوصل لحل سِلْمِي مع العرب بما لا يضر بمصالحنا، وسَنُصَدِّر لها النفط الإيراني، ونحصل منها على راجمات الصواريخ وقاذفات اللهب، وأُقِيمَ في وقت لاحق عشاء على شرف إيبان قبيل رحيله.

أواخر ديسمبر ١٩٧٠م، تسلم الشاه الدفعة الأخيرة من صفقة الأسلحة الأمريكية التي اتُّفِقَ عليها عام ١٩٦٧م، والتي ضمت:
مدافع من طراز ١٧٥ و٢٠٣مم، ومدافع هويتزر طراز إم ١١٠، ومدفعيةً متطورةً طراز جراي هوند، وناقلات جند مدرعة، ومدفعيةً ثقيلةً طراز إم ١٠٧وإم ١٠٩.

كما حصل الشاه على تسع وثلاثين طائرةً من طراز إف إى ٥، وكذلك حصل الشاه على عشر طائرات نقل أمريكية من طراز سي ١٣٠، وذلك في نهاية نفس العام بعد اتفاقية وُقِّعَت عام ١٩٦٨م.

أُسْدِلَ الستار على عام ١٩٧٠م، وقد ازدادت فيه الميزانية العسكرية الإيرانية لتصل إلى ستمائة وتسعة عشر مليونًا وخمسمائة ألف دولار، وازدادت قبضة الشاه القمعية قسوةً على عنق الإيرانيين، ورسخ في ذهن الشاه أن حكمه مستمر إلى ما شاء الله، وأنَّ العام الجديد سيضعه على أول طريق الامبراطورية الفارسية التي يحلم بإحيائها.

الثالث من يناير ١٩٧١م، قَدَّمَ أول سفير مصري منذ عهد عبد الناصر أوراق اعتماده للشاه، وكانت هذه بادرة طيبة من الرئيس المصري الجديد أنور السادات الذي تعرف عليه الشاه قبل عامين أثناء مؤتمر القمة الإسلامي في الرباط، عندما وقعت مشادة كلامية بين الجانبين، وأنهاها تدخل العاهل

السعودي الملك فيصل بن عبد العزيز، ومن يومها أبدى الشاه إعجابه بذلك السياسي المصري الحاذق.

حصل الشاه في ذلك العام على ست عشرة طائرةً سمتيةً فرنسيةً من طراز سوبر فريليون ضمها لأسطوله الجوي الطويل الذي اعتمد فيه على الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية، والذريعة حاضرة: التَّصَدّي للاتحاد السوفيتي.

فلطالما اعتمد الشاه في تسويق وتصوير نظامه على أنه حائط الصد ضد أطماع وتغلغل السوفيتيين في الشرق الأوسط، ومن هنا تغاضى الغرب -المتشدق بالدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان- عن وحشية واستبداد الشاه، بل ودعمه بأحدث الأسلحة، طالما وقف حائلًا بين السوفييت وطموحاتهم في هذا الجزء الحيوي لمصالح الغرب، وقرر الشاه -كما استعرض قوته وأهميته أمام العالم- أن يستعرض سلطانه القديم والذي يصبو لإحيائه من جديد.

أرسل الشاه في أكتوبر ١٩٧١م دعوات لمائة وستة وعشرين من زعماء العالم لحضور الاحتفال بمرور ألفين وخمسمائة عام على الحكم الشاهنشاهي لإيران، وأقيم الاحتفال في مدينة برسوبوليس عاصمة ملوك الأخمينيين حكام إيران القدامى، وأقيمت خيام الاحتفال من الحرير على مساحة أربعمائة فدان، وزُيِّنَت بخيوط الذهب، وزُوِّدَت بمكيفات للهواء، وكان لكل وفد من الوفود الزائرة خيمته الخاصة به، وهي عبارة عن سرادق كبير مكيف الهواء، يحتوي على غرفة معيشة كبيرة وحجرة نوم ومطبخ.

أقام الشاه عرضًا عسكريًا مهيبًا ليرسل عبره رسالة للشرق والغرب بشأن قوة جيشه الجرار، وألقى الشاه خطبةً رَحَّبَ فيها بضيوفه، وقَدَّم الطعام لضيوف

الحفل من مطعم ماكسيم الباريسي الشهير، ومن أراد من ضيوف الحفل طعامه القومي فله أن يحضره من باريس على طائرة خاصة على حساب الشاه، وكان الطعام الرئيس الذي قدمه الشاه لضيوفه هو الكافيار الذي تشتهر به إيران، طهاه طهاة فرنسيون محترفون، ولم يَفُت الشاه أن يقدم لضيوفه الغربيين -على وجه التحديد- مشروبهم المفضل: الخمر.

فقد بلغت عدد زجاجات النبيذ المستهلكة في الحفل خمسًا وعشرين ألف زجاجة، وحتى يخرج الاحتفال بالشكل الأمثل، أقام الشاه عددًا من محطات القوى الكهربية لتشغيل الثلاجات وأجهزة التكييف الهواتف وأجهزة التليفزيون.

بلغت تكاليف الحفل مائةً وعشرين مليون دولار، وهو مبلغ فلكي بحسابات السبعينات، وفي بلد وصل فيه الفقر المُدْقِع حَدَّ بيع بعض الأسر لأطفالها؛ لتوفر بثمنه حياة أفضل لبقية أبنائها، وسط غياب للدولة عن تقديم أبسط مقومات الحياة الكريمة لهذه الأسر، لَكِنَّ ذلك لم يكن له محل من الإعراب عند الشاه، الذي اعتبر أن الحفل استحق كل دولار أنفق عليه؛ فقد مهر آل بهلوي بخاتم الشرعية حسب اعتقاده، وكان رد الخميني حاضرًا على تبذير الشاه وترفه وتجاهله في مقابل ذلك للبؤس الذي يرزح فيه شعبه.

في إحدى محاضراته بالنجف التي تلت احتفالات برسوبوليس، وَجَّهَ الخميني كلامًا قاسيًا للشاه، اتهمه فيه بتسويد جرائمه لصفحات التاريخ الإيراني، وذهاب وعوده الرنانة أدراج الرياح، وعندما نقل أحد الصحفيين الفرنسيين المقربين من الخميني ويدعى إريك رولو ما قاله الخميني للشاه في أحد الحوارات

التي أجراها معه، رَدَّ الشاه عليه في غضب: "من يكون الخميني هذا ؟إنه ليس إيرانيًا أو فارسيًا، إنما هنديّ، وأنا لا أرد على الهنود".

أعطت تصرفات الشاه وتصريحاته قوةً دافعةً لخطب الخميني وتسجيلاته المُسَرَّبَة إلى إيران؛ فقد كان ما يقوله الخميني من ذم في حق الشاه يراه الإيرانيون واقعًا على الأرض، مُذَكِّيًا بذلك روح الثورة في نفوسهم ضد الشاه وطغمته المستبدة.

حيث بدأت الجماعات الثورية المسلحة تُعِدُّ العُدَّةَ لساعة المواجهة، متسلحةً برسائل الخميني التي يحملها ابنه أحمد إلى إيران بين الحين والآخر، وصَعَّدَت المعارضة الداخلية من عملياتها ضد النظام والمؤسسات الأجنبية على حد سواء.

بدأت المعارضة أولى عملياتها بالانتقام من مُدَّعٍ عام عسكري، أصدر حكمًا بالإعدام على ثلاثة عشر شَابًّا إيرانيًا اتُّهِمُوا بقلب نظام الحكم، وبعد رَدَح من الوقت استغرقته التحقيقات لم تتوصل الأجهزة الأمنية إلى الفاعل.

بعد فترة نفذت المعارضة عمليةً أفجعت العائلة المالكة برغم فشلها، عندما حاولت اختطاف ابن الأميرة أشرف، وكان هذا تقصيرًا واضحًا من أجهزة الأمن، ورسالةً قاسيةً من المعارضين بأن أياديهم طائلة، وتستطيع الوصول إلى عقر دار الشاه.

نجحت المعارضة مُجَدَّدًا في مهاجمة العائلة المالكة؛ فأطلقت النار على ابن الأميرة أشرف وأردته قتيلًا؛ لتحرق قلب العائلة البهلوية على فلذة كبدها، كما

أحرق شاه قلوب ملايين الأمهات على أبنائهم، وقررت المعارضة تطوير هجماتها التي وصلت لإلحاق الأذى بذراع الشاه الباطشة: الجيش.

اغتيل عدد من قادة الشاه العسكريين كالجنرالين مولافي وطاهري، وتَخَطَّى الأمر الخطوط الحمراء باغتيال ثلاثة عسكريين أمريكيين برتبة كولونيل في طهران، في رسالة للولايات المتحدة بسخط الإيرانيين على دعمها اللامحدود لنظام الشاه الذي يُنَكِّل بشعبه وينهب خيرات البلاد ويملأ السجون والمقابر بمعارضيه، ولا تتعامل معه أمريكا راعية الحريات إلا بمنطق: (لا أسمع لا أرى لا أتكلم).

استخدمت المعارضة أسلوبًا جديدًا في مقاومتها لتسلط النظام، فهاجمت مقار الوزارات والدوائر الحكومية ومراكز الشرطة، بل ووصل الأمر إلى اغتيال رئيس شرطة طهران، هذا بالإضافة إلى شركتي الطيران الإسرائيلية والبريطانية، وقتلت ثلاثة عمال بشركة روكويل انترناشيونال للطيران، وامتدت المظاهرات المناوئة للشاه إلى الجامعات الحكومية.

كانت الجامعات مَسْرَحًا للمصادمات المُتَكَرِّرَة بين الطلبة الناقمين على سياسة تكميم الأفواه التي عمت البلاد وبين أمن الشاه وجيشه اللذين تصديا لهم بوحشية؛ لوأد انتفاضتهم في مَهْدِها، لَكِنَّ هذه الانتفاضة وصلت ذروتها في ذلك العام ١٩٧١م.

وفي هذا العام أيضًا أثبت الجيش أنه درع الشاه وسيفه بإخماده هذه المظاهرات وإعادة الأحوال لما كانت عليه، لكن الشاه لم يُعِر ما وقع من حوادث اهتمامًا، وَوَلَّى وجهه شطر شاطئ الخليج الغربي حيث كانت الأحداث تتوالى سريعًا.

نالت قطر استقلالها في ذلك العام، وفي يوليو من نفس العام اتفقت إمارات الخليج السبع على قيام اتحاد فيما بينها عقب الانسحاب البريطاني مباشرة، وفي أغسطس ١٩٧١م نالت البحرين استقلالها، ومع حلول نوفمبر ١٩٧١م قَرَّرَ الشاه فرض الأمر الواقع فيما يخص جزر الإمارات الثلاث.

الثلاثون من نوفمبر ١٩٧١م، نَفَّذَت القوات الإيرانية مدعومةً بمروحيات عملية إنزال على طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبي موسى، وأعلنت الخارجية الإيرانية في تقرير لها حول هذا التصرف: "إنه طبقًا لمفهوم السيادة الوطنية فقد قامت قواتنا باسترداد الجزر الثلاث التي انتزعت من بلادنا قبل ثمانين عامًا".

أعلن الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون نهاية ١٩٧١م مبدأه الشهير، والذي أعلن فيه عدم نية بلاده التدخل عسكريًا في مناطق الصراع حول العالم، واحتاج بالتالي إلى تفويض حلفائه للقيام بهذه المهام نيابةً عنه للدفاع عن مصالح الولايات المتحدة في هذه المناطق، وكان الشاه واحدًا ممن وقع عليهم الاختيار للقيام بهذه المهمة، وكان العراق ساحة الاختبار الأول.

منذ اشتعل الصراع بين حكومة البعث والأكراد بقيادة مصطفى البرزاني، دخلت إيران على خط المواجهة بقوة، وصلت حد إرسال الشاه ألف جندي إيراني للقتال ضد القوات العراقية، وحاول حليف الشاه العبري الداعم للأكراد الوقوف على آخر تطورات الحرب.

الثامن عشر من مايو ١٩٧٢م، زارت رئيسة الوزراء الإسرائيلية جولدا مائير إيران والتقت مع الشاه ووزير بلاطه (أَسَد الله عَلَم)، وناقشت معه القتال المحتدم بين الأكراد والحكومة العراقية كون الشاه وإسرائيل هما داعمي البرزاني في

هذا القتال الطويل، فأكد لها الشاه أن الأمور تسير على ما يرام، وأن إنهاك بغداد لا انتصار الأكراد هو ما سيحفظ المصالح الإيرانية والإسرائيلية في المنطقة.

الثلاثون من مايو ١٩٧٢م، زار نيكسون ومستشار أمنه القومي هنري كيسنجر طهران، والتقيا الشاه الذي أخبرهما بوعده للبرزاني بدعم أمريكا له ضد العراق؛ بغية تحييد بغداد عن إعاقة الدور الإيراني في الخليج ووعده الرجلان بالرَّد عليه فور عودتهما لواشنطن، وقُبَيْل انتهاء الزيارة كانت المفاجأة في انتظار الشاه وضيفه الأمريكي.

قبل وصول الشاه وضيفه الأمريكي لزيارة قبر أبيه رضا شاه، انفجرت في المقبرة قنبلة كانت مُخَبَّأةً للتخلص من الشاه، لكن العناية الإلهية أنقذت الشاه وضيفه الذي غادر البلاد بعد هذه الحادثة، وأثبتت التحقيقات أن حزب تودة هو من يقف وراء العملية.

السادس عشر من يونيو ١٩٧٢م، أبلغ نيكسون بهلوي أنه سيرسل إليه مندوبًا يحمل له رده بشأن دعم الأكراد، وكان هذا المندوب هو جون كونالي النائب عن الحزب الجمهوري الذي رَدَّ على الشاه بموافقة بلاده على دعم الأكراد؛ وفاءً لصديق حميم (إيران) ضد عدو تقليدي يهدده (العراق)، وقد عقد الشاه في هذا العام اتفاقًا بقى طيّ الكتمان مع نيكسون لبيع الأسلحة المتطورة إلى إيران حالما طلبها بهلوي.

كذلك حصل الشاه على منظومة صواريخ رابير وتايجركات، وعدد من أنظمة الرادار التي تعمل بالكمبيوتر، إضافةً للقنابل الذكية، كما حصل الشاه في

نفس العام على أربع بارجات، وست كاسحات ألغام، وعشرة زوارق خفر سواحل، وجُهِّزَت البحرية أيضًا بمدمرة أمريكية مجهزة بصواريخ سي كيلر الإيطالية وسي كات البريطانية، وبعد أن اطمأن نيكسون للقوة الضاربة التي غدا الشاه يتمتع بها، أوكل له مهمته الأولى في مكافحة الشيوعية.

بإيعاز من الولايات المتحدة، أرسل محمد رضا بهلوي قواته إلى إقليم ظفار العماني لمساعدة السلطان قابوس بن سعيد ضد مقاتلي القوات الوطنية العمانية المدعومين من السوفييت، وذلك بالتنسيق بين الجيش الإيراني والقوات الأمريكية المرابطة في المحيط الهندي، بعد أن أحجمت الأخيرة عن التدخل خشية تكرار السيناريو الفيتنامي الذي مَرَّغَ تاريخ وشرف العسكرية الأمريكية في الوحل، وقد أبلت قوات الشاه بلاءً حسنًا في مهمتها تلك التي خرج منها السلطان قابوس ظافرًا بفضل مساعدة الشاه.

وعندما سُئِلَ الشاه عن سبب اشتراك قواته في القتال ضد الثائرين على نظام قابوس قال: "قواتي تحارب في عمان جنبًا إلى جنب مع قوات السلطان قابوس، فالثورة في ظفار شيوعية وأنا ضد الشيوعية في المنطقة. هذه ليست مسألة عقيدة بل مسألة أمن".

كان الشاه نصف صادق نصف كاذب في هذه المقولة. فعدائه للشيوعية ليس إلا نزولًا على الرغبة الأمريكية؛ لاستغلالها في تطوير قدراته العسكرية لإرهاب دول الخليج وحملها على تقديم التنازلات التي ترضى غروره، أما فيما يخص الأمن فقد كان الشاه يخشى قيام حكم مُوَالٍ للسوفييت على شاطئ مضيق هرمز الغربي يعيق تصدير النفط الإيراني؛ فيخسر الشاه خسائر فادحةً قد تطيح به.